

٣٤٥٢١

على الجارم بك

فتح الوليد

٦٢

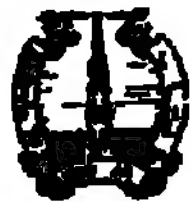
اقرا

دار المعرف للطباعة والنشر بمصر

شكر وسبح

كلمة تدخل سلسلة اقرأ بهذا الكتاب في عامها السادس . وهي
تأريخ . منذ أن أنشئت في يناير ١٩٤٣ . بمعاونة حضرات
الأساتذة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل باشا وعباس
محمود العقاد وفتواد صروف . تضطلع برسالتها السامية في
تقريب موارد العلم والعرفان إلى أذهان الشعب من أيسر سبيل .
ويسرها أن تبث الشكر أرباب الأقلام الذين ساعدوها على
أداء رسالتها ، وجمهور القراء الذين عرفوا قدر الزاد الذي توفره لهم ،
فأقبلوا عليها إقبالا لم تحظ به سلسلة أخرى من نوعها .
ويطيب لها اليوم أن تجدد عهدا لقراء الشرق العربي في أن
تضاعف جهدها ، لتكون لهم نعم المرشد والهادي إلى متعة العقل
ولذة الروح .

دار المعارف بمصر



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

نصح وعناد

قصر راسخ القواعد . شامخ النوا ، رسا أصله فوق شرف
عال من الأرض ، وارتفعت قبابه في الجوا كأنها تطلب شيئاً
في السماء . وقد موهت بالنضار ، وسطع عليها الأصيل ،
فأرسلت شعاعاً كان أجمل من الأصيل ، وأبهى من خالص
النضار . وامتدت حول القصر البساتين الفيح تجرى بها الجداول
بطيئة متعثرة ، كأنها تخشى أن تلتقى بنهر برّدى فيلتقمها زخاره
الخصم . ويدور بها كالمذعور فيفتحهم كل دار وينفذ من كل
حائط . ورفت بها الأزهار رائحة الألوان ، مسكية الشذا ، وقد
عبث بها النسيم فراحت تختبي في أكمائها كأنها الغيد الحسان
خافت خائفة الأعين ، وفضول العاشقين . وماست أشجار
الخور كأنما شجاها تغريد الطير فوقها ، فأخذت تساق الأنعام ،
وتساير زنين الإيقاع .

ذلك مشهد يجب أن يرى حتى يعرف . ويجب أن تراه
عين فنان لتدرك بعض ما به من جمال وروعة . أما القلم ، وأما
اللسان ، فأعجز من أن يصلأ فيه إلى صورة ، أو شبه صورة ،

تقربها العيون ، أو تطمئن لها النفوس . يقولون إن اللغة أداة البيان ، ويقولون إن اللغة بريد العقول ، فهل هي أداة البيان حقاً ؟ وهل هي بريد صادق يحمل ما في نفسك إلى نفس غيرك ؟ إن من ضروب الأحاسيس ما يدق عن متناول اللسان ، ويستعصى على سنان القلم . وإن من الصور الغريبة الألوان الغريبة التركيب ، ما يعجز الوصف ، ويخرس البيان . ولن يملك المرء إذا رآها إلا أن يصيح : هذا باهر ! هذا جميل ! هذا فاتن ! وكأنه يريد أن يقول شيئاً آخر فلا يستطيع . وستبقى الإنسانية هكذا عجماء حتى توفق إلى وضع كلمات جديدة تترجم عن كل ما تراه العين . ويجيش به الوجدان . ويكفي أن أقول إن هذا المنظر كان بربوة الوادي بالجانب الغربي من دمشق ، وإن هذه الربوة ، تزدان بأبداع ما طرزته يد القدرة على هذه الأرض من حلال ، وإنما إلى جنة الحاد أشبه بالمطامع إلى القصيدة ، أو بالمقدمة إلى الكتاب . وهي التي حينما رآها عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الشام قرأ قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

هذه هي ربوة دمشق . وهذا هو قصر الوليد بن يزيد ، وكان يسمى قصر « كجابهة » ، بناه يزيد بن عبد الملك الخليفة

الأموي لجاريته « حبابة » وأنفق فيه كثيراً من كنوز الدولة ، وقام على بنائه وزخرفته كبار مهندسي الروم . فجاء صورة للفن الرائع ومظهراً لفخامة الملك . وصولاً السلطان .

وفي أحد أيام شوال من سنة ثلاث وعشرين ومائة ، جلس ببعض أبهاء هذا القصر يزيد بن الوائيد ، ويزيد بن عنيسة ، ومحمد بن شهاب الزهري ، ويزيد السلمي ، وقد طال بهم الإطراق ، ودلت أسارير وجوههم على ما تنطوي عليه أنفسهم من أمر عظيم . وهم دفين . وبعد لأي رفع الزهري رأسه ، وكان من كبار المحدثين ، وأعلام التابعين . عظيم المنزلة في الدولة لعلمه وورعه ، وقال :

— لست أدري لم بعثنا الخليفة هشام إلى هذا الرجل ، وهو يعلم أن انتقال جبل « قاسيون » من مكانه أهون وأيسر في إدراك العقول من هدايته وزخرفته عما هو فيه من عبث ؟ لقد حدثه مرارا . وسقت إليه كثيراً من أقوال الرسول الكريم ، ووعظته فأطلت الوعظ ، فما كان يزيد كل هذا إلا تمادياً ، حتى كأنني كنت أغريه بلومي ، وأثير فيه شيطان الغرور بمواعظي ، « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » . صدق الله العظيم . فرفع إليه يزيد بن الوليد بصره ، وقد نم وجهه عن ضجر واشمئزاز ، وقال :

— إن الأمر يا أبا بكر لو اقتصر على فتى سادرهان وقلت نوازله ، ونحفت أوزاره ، ولكنه أمر أسرة كريمة المنبت في الجاهلية والإسلام ، وشأن دولة تحمل أعباء الخلافة ، وتحمل صخرة الدين أن تنهار ، بعد أن بذلت جهود وعقول في إرسائها ، وحطمت سيوف في توطيد أركانها . والشيخ يرى ما تنهض به دولة بني أمية كل يوم من أعباء ، وما تشد من عزائم . فجيوشها لا تكاد تقفل من العراق وخراسان ، حتى تسير إلى أرمينية وأرض الروم ، فهي أبداً صائفة شاتية . وسيوفها لا تكاد تفر في أغمارها ، حتى تستل من جديد ، ولا تكاد تجف دماؤها من قهر خارجي ، حتى ينبع لها خارجي من أقاصي الأرض ، كأن الأرض أجذبت من كل نبات إلا من هؤلاء المناكيد . وإذا أسكتنا زئير أهل خراسان ، أطلت علينا ثورة في المدينة ، ومدت رأسها فتنة بالعراق . فإذا لم تكن أزمة الدولة في يد جريئة حازمة ، ولم يصرف شئونها رجل داهية باقعة لم تستعبده الدنيا ، ضاعت الدولة بددا ، وكانت حرصا . وهذا الوليد بن يزيد الذي بعثنا اليوم هشام لنصحه ودعوته إلى الكف عن لهوه ، لو كان فتى من فتيان بني أمية لا يرتبط بالخلافة ، ولا يتصل بسياسة الحكم بسبب ، لصرفنا عنه وجوهنا آسفين محزونين ، ولقننا شاب أطغاه المأان والشباب والحسب ، فراح ينهب لذات

الحياة، وإن له لغاية هو مدركها ، وأجلا هو موفيه ، ولحظة ندم بهم أن يعتصم فيها بالتوبة فلا تنفعه التوبة . ولكن يأتي القدر إلا أن يكون الوليد هذا ولي عهد الخلافة ، وتأتي الأيام السود إلا أن تعده ليجلس حيث كان يجلس عبد الملك ابن مروان وعمر بن عبد العزيز . ويا ويل الخلافة ، ويا ويل الإسلام إذا ألقيت مقاليد الحكم في يد هذا الرجل ! وإنما إذا جئنا اليوم لنكفه عن شهواته ، أو لنصلح من نفسه – إن كان ذلك الإصلاح مستطاعا – فإنما إلى صون الخلافة نقصد ، وحماية الملك نريد . فتحرك يزيد بن عنبسة في قلق المغيظ المحتق . وقد كان قبل ذلك يعتمد برأسه على قائم سيفه حزينا واجماً ، وقال :

– إن الله يريد لهذا الملك أمراً هو قاضيه ، فاننا ما كدنا نبتهج بموت أبيه يزيد بن عبد الملك ، وقيام خلافة هشام بعده ، حتى دهمتنا المقادير فحتمت علينا أن يكون هذا الفتى ولي عهد هشام . لقد كان يزيد مسرفاً على نفسه ، قسم أيامه وأمواله بين سلامة القس المغنية ، وحبابة اللعوب ، وبنى لحبابة هذا القصر الشامخ الذي نجلس فيه اليوم ، وأنفق عليه من الأموال ما كان يكفي لغزو الصين ، وكل ما وراء البحر الأخضر من ممالك . ولكننا نحمد الله على أن عهده لم يطل ،

وأن هلاكه كان وشيكاً ، وكثيراً ما يكون الموت علاجاً إذا
أعضل الداء ، وعز الدواء . كانت خلافته أربع سنين كادت
تهوى فيها الدولة إلى الحضيض . لولا قوة فيها كامنته من عزيمات
صلاب وطدت أساسها من عهد قديم . وكأنه أراد أن يصل
حباله بحبال ابنه فلم يمت حتى عهد بالخلافة بعده إلى هشام ،
ثم من بعد هشام إلى هذا الفتى . وإن أنحشى ما نخشاه
بعد أن أعاد هشام إلى الخلافة عظمتها ، وغرس في القلوب
الرغبة منها ، وأقام عمودها ، وحرص على جمع الأموال
لسد مفاقرها ، أن يأتي بعده هذا الوليد فيمحو آثارها ،
ويبدد قوتها ، ويمكّن منها أعداءها القاعدين لها كل مرصد ،
والمتربصين لها الدوائر . والمتحرقين إلى فرصة يمزقونها فيها أشلاء ،
ويأتون على بنيانها من القواعد . وليس لدينا من الرجال اليوم
ما كان لنا والدولة في عثموانها . والملك في قوة اكتماله . فليس لنا
مثل مسلم بن عقبه . وليس لنا مثل الحجاج بن يوسف ،
وليس لنا مثل قرّة بن شريك . فاذا وقعت الواقعة ، وحلت
المفادحة . وتركت الدولة في أيدي خائرة لم تجد بين الدافعين
عنها إلا بنانا مخضباً ، ومعصاً أدماء السوار . وويل للدولة تحميها
النساء ! فأسرع الزهري يقول :

— لقد حاول يزيد بن عبد الملك أن يخلع هشاماً من ولاية

العهد . وأن يقدم ابنه عليه لولا أن أدركه الموت من حيث لم يكن يتوقع . ولو أنه فعل لكان للمسلمين اليوم حال غير تلك الحال . وهنا اتجه يزيد بن عنبسة إلى السلمى وقال :

— مالك لا تنازعنا الحديث أبا مساحق ؟ إن أكبر الظن أن كلامنا يثقل عليك ، فلقد رأيت سحابة غيظ تركد على وجهك منذ دخولنا . ولعلك لم تكن تتوقع أن يزور صاحبك اليوم قوم غلاظ شداد يصارحونه القول ، ويدعونه في عنف إلى تقوى الله ومخالفة نفسه . فقال الزهرى :

— إن السلمى كان معلم الوليد ونصيحه . وكان الأجدد به ، وقد قضى في الإشراف على تهذيبه سنوات ، أن يقوم قناته ، وأن يصرف عنه شياطين الفتنة . فإنه لو فعل لأغنانا اليوم عن لقاء هذا الفتى وجبهه بما يكره . ووالله لولا أن ألح على الخليفة وألحف في وجوب القيام بنصحه . ما نقلت إلى داره قدما . فقال يزيد بن الوليد :

— ومن لهذا الأمر سواك يا ابن شهاب وأنت اليوم مناط هذه الأمة في أمور دينها ؟ ولقد كان عمر بن عبد العزيز ناصحا للمسلمين حين كتب إلى عماله في الآفاق يدعوهم إلى الأخذ بأرائك في الدين . ويقول لهم : إنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية من ابن شهاب . فد الزهرى يده إلى يزيد

كالمتوسل إليه أن يكف عن هذا المديح ثم قال :
 — أرسل إلى الخليفة إبراهيم الخزومي بعد أن انفتلت من صلاة
 الغداة فقال: إن أمير المؤمنين يدعوك إليه الساعة . فذهبت معه
 على ثاقل وكره . فلما حضرت مجلسه أقبل على كاسف النفس
 حزينا . وكان ولداه مسلمة والعباس واقفين في خدمته ، ثم
 قال : اقرب مني قليلا أبا بكر . فقربت وسادتي من وسادته ،
 فاتجه إلى وقال : إني نظرت يا ابن شهاب في أمري وأمر هذا
 الملك الذي أسوسه . والأمة التي أرهاها ، فرأيت أني أسير إلى
 الفناء وثباً ، وأعدون نحو الموت عدوا . فان هذه الذبحة ما زالت
 تعتادني بين الحين والحين ، وقد استطعت حتى الساعة أن أنجو
 منها بذلك الدواء الذي أتجرعه . ولكن نوباتها أخذت تتقارب
 وتطول . وأخشى أن أكون مائتاً بعد أيام أو أشهر . وقد بذلت
 كل ما في قدرة رجل متلي لإنهاض الدولة وتمكين سلطانها ،
 ولو كنت أعلم أن الذي يلي هذا الأمر من بعدي رجل حال
 للأعباء ، شديد على اللأواء ، كامل الرجولة . طاهر النفس ،
 نقي الجيب . يخاف ربه ، ويخافه عدوه . لمان على الأمر
 واستقبلت الموت سعيداً رضيعاً . ولكن الخلافة ستنتقل إلى ابن
 أخي الوليد . وهو — كما علمت وعلم أهل الحضرم والمدن — قد
 نسي نفسه . ونسي حسه . وانصرف إلى جلساء السوء . فماذا

يكون من أمر هذه الأمة إذا وليها هذا الفتي ؟ وماذا يكون من أمر أطراف الدولة ، والثورات فيها لا تنطوي نيرانها ، ولا يركد قناتها ؟ وماذا يكون من أمر ملك بني إلى اليوم أكثر من ثمانين عاماً تؤتله جبايرة الأمويين بأرائهم وسيوفهم ؟ لن يبق من ذلك شيء ، وستمزق فلول بني أمية في البلاد حيارى مطاردين ، يحسدون رعاة الإبل في الصحارى الجرد على ما هم فيه من رخاء ونعمة . لقد بذلت كل ما في وسع بشر لإصلاح هذا الرجل ، فلم ألق نجاحاً . وكان من آخر أمري وأمره أن وليته الحج بالناس لأصلح من سيرته وأغريه بتقوى الله إغراءً . فكان منه ما علمت وعلم الناس . والآن وقد ضاقت بي الحيلة . أدعوك لتذهب إليه أنت ويزيد بن الوليد وابن عنبسة ، لتبصروه بما يجب عليه إزاء الله . وإزاء الخلافة ، وإزاء نفسه ، ولتخبروه بأن صلاحه لن يكون له وحده بل لهذه الأمة التي نخشى أن نذهب ضياعاً ، وتصبح نهياً مقسماً . هذا يا أبا بكر آخر مهم في كتاتي . فإن أجاب وأطاع هدأت نفسي . وإلا فله أمر هو فاعاه . اذهب الآن مباركاً موقفاً . وقد أمرت يزيد بن الوليد وابن عنبسة أن ينتظرك لدى الباب .

وكان طول الحديث قد أجهد الزهري فأخذ يرسل أنفاساً قصارا متلاحقة . ثم قال وهو ينظر إلى السلم : :

– وهكذا جئنا أبا مساحق لنروض هذا المهر الحرون ،
حتى يسلس قياده ، وإني أرى في ملامحك ما يدل على الاستنكار
والمخالفة ، فهل لديك من شيء يقال ؟

– لقد أظلم الحديث ، وسلكتم فيه فنوناً ، ولكنكم اتجهتم
اتجاهاً واحداً ، ونظرتم إلى الرجل من ناحية واحدة ، فصورتموه
كما شاءت نفوسكم لاهياً مرحاً تسلب من صفات الرجولة ،
وقطع كل صلة بينه وبين الخلق الكريم ، وهذا تصوير مائن
أيها البررة الأتقياء . إني خالطت الوليد منذ كان غلاماً في الحادية
عشرة . وهو الآن يجاوز الثلاثين . خالطته خلاط معاشره
واختبار . وسبرت غور نفسه . وعرفت ظاهر أمره وباطنه ،
فرايت أنه سر آبائه جميعاً ، فقيه دهاء مروان بن الحكم وشغفه
بالانتقام . وفيه تيه عبد الملك وكبرياؤه وصدق عزيمته ،
وفيه عناد أبيه وضعف نفسه . ثم إن به عرقاً من أخواله بنى
هاشم أمدّه بالبلاغة وإجادة الشعر ، وذلك له سبيل التمكن من
اللغة ومعرفة الأخبار . إنه ابن آبائه حقاً ، ورثهم في الجاه والمال
والخلاقة . كما ورثهم في الجبلة والخلق ، وفيما يزين وفيما يشين .
إنه حقيقه من وراثات مختلفة متباينة : فيها الخير وفيها الشر ،
وفيها ما يسوء وفيها ما يسر . وأشهد إني ما رأيته يقرأ القرآن أو
يدرس أحاديث النبي الكريم إلا متطهراً متطيباً جالساً على

ركبته في خشوع ورهبة . وأشهد إنه طالما حدثني عن نفسه وما يندساق إليه من هفوات الشباب ، والدموع تنهمر من عينيه ، والحزن يملأ جوانب نفسه . وكثيراً ما كان يقول وهو في تلك الحال : وماذا أفعل وقد خلقت ريشة في مهب الأهواء ، وقصبة جوفاء في بحر مائج بالفتنة والإغراء ؟ ثم يرفع رأسه إلى السماء في رعب وضراعة وهو يردد : اللهم إنك إنما سميت الغفور لأنك تغفر لمثلي . وسميته مرة وقد اجتمع بفتية من بني أمية وهو يقول لهم : يا بني أمية ، إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة ، ويهدم المروعة ، ويثور ثورة الحمر ، ويفعل ما يفعل السكر ، فإن كنتم لا بد فاعاين فجنبوه النساء ، فإن الغناء رقية الشيطان . إني لأقول ذلك فيه على أنه أحب إلى من كل لذة ، وأشهى إلى من الماء البارد إلى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال .

فأسرع ابن عنبسة يقول :

— أخشى يا أبا مساحق إذا طال بنا المجلس أن تزعم أن صاحبك من الملائكة الأطهار .

— لا يا ابن أخي إنه ليس من الملائكة الأطهار ، إنه قد يكون أحياناً عبد نفسه إذا جمحت به أرخى لها العنان وتركها تسير به إلى حيث تريد . ولكني أقول إنه رجل له جانبان ، جانب للخير يظهر فيه نبه وكرم عنصره وطهارة عرقه ، وجانب

للشر يرحل فيه العقل ، وتنحل العزيمة ، ويختفى الوليد الشريف
الكريم ، ويأتى الوليد الظريف المرح . وربما كان فى انقياده
إلى نوازع نفسه لا يزيد عن أمثاله من الفتيان الذين خلقوا على
غرار فطرته ، ولكن الوليد أضف إلى ما فيه من ضعف العزيمة
ما طبع عليه من العناد والتحدى والتباهى بازدياد آراء الناس ،
وعدم المبالاة بلوم اللائمين . فلم يُبرأ كما يراعون ، ولم يخف
الرقباء كما يخافون ، بل قال ما يقول فى علانية وسخرية ، وكشف
ذات نفسه لأعدائه وأصدقائه فى غير خوف أو حذر . وبما أكثر
فيه القالة شغف الناس بالأقاصيص وغرائب الأخبار ، فهم
إذا نقل إليهم كاذب أنه شرب كأساً لم يرقهم أن ينقلوا الخبر
كما هو . وأى طرافة فى أن يشرب شاب كأساً محرمة بعد أن فسد
الزمان ؟ فراحوا يقولون إنه شرب باطيتين حتى انتفخ بطنه .
وهنا ابتدره ابن عنبسة فقال :

— إن الناس لا ينقلون إلا ما يسمعون من غلمان القصر
وحواريه . وقد بلغنى أنه اصطنع بركة فى هذا القصر . وملاها
خمرأ . وأنه إذا استخفه الطرب ألقى فيها بنفسه وأخذ يكرع ،
حتى يبين النقص فى أطرافها .

— هذا اختلاق مائن ، وإفك كاذب . فالوليد أبغض الناس
لأنه يندر . أو ما فيه احتمال القدر ، وهو لحرصه على النظافة لا يشرب

من إناء شرب منه غيره . ثم كيف يستساغ في العقل أن يشرب من البركة حتى يظهر النقص فيها ؟ إنه لو فعل لكان اليوم من الهالكين ، واسترحنا من الجدل في شأنه . وهذه الفرية البلقاء لا تقل في بشاعة كذبها عما يتناقله الناس من أنه أراد يوما أن يتفاعل ، ففتح المصحف . فكانت أول آية تقع تحت عينيه قوله تعالى : « واستفتحوا ونخاب كل جبار عنيد » . فقد قالوا إنه غضب عند ذلك وعربد ومزق المصحف وقال :

أتوعد كل جبار عنيد ؟ فما أنا ذاك جبار عنيد !
 إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد
 ويكفي لتفنيد هذا الهراء أني أعلم وأنكم تعلمون أن العرب على ولوعها بالتفاؤل ، لا تتفاعل بالمصاحف ، ولا بما يدون في الكتب ، فإن ذلك لم يكن من عاداتها منذ خلق الله الصحراء والجمل .
 وأكبر الظن عندي أن هناك ثلاث طوائف تعمل على الكيد لبني أمية كلهم لا للوليد وحده ، وأنها تبذل الجهد ناشطة لإسقاط الدولة ومحو آثارها . وهذه الطوائف هي طائفة الناقمين من غير العرب بعد أن أذلم بنو أمية ، وقضوا على عزهم ومجدهم .
 وأنزلوهم بدار الهوان والافتعاس . وطائفة بني العباس الذين يدعون « لمحمد بن علي » والذين ربضوا بخراسان متربصين ، يتحينون الفرصة للوثبة . وينشرون جواسيسهم وعمالهم في البلاد ليبتثوا

في الناس كراهية الخلافة ورجال الدولة . ويذيعوا عنهم خروجهم على الدين واحتجائهم الأموال وتبديدها في اللهو والنعيم . وهناك شيعة على بن أبي طالب . الذين يجتذبون الناس بزهدهم ، ويستدرجون عطفهم بما أوقع بهم بنو أمية من القتل والتشريد . هؤلاء جميعاً يعملون كادحين لإسقاط عرش الأمويين . وقد وجدوا في الوليد منبعاً فياضاً لإشاعة الأكاذيب ، وابتداع الأخاليق ، وراحوا يهولون في كل ما يبدو منه من هو . فإذا لم يصدر عنه شيء رسم لهم خيالهم أبشع الصور ، ولفق لهم أسوأ الأحاديث . وهنا التفت إليه الزهري وقال :

— عجيب أمرك يا ابن مساحق ، تعترف بعث صاحبك ثم تدفع عنه ، وحينما ترى أن حجبتك لا تنهض بجناح ، تحاول أن تنقل الأمر من الوليد إلى بني أمية عامة ، ثم إلى ما يحيط بهم من أحداث وأعداء .

— لا يا أبا بكر إنني إنما أنكر على الناس تعصبهم عليه ، وتألبيهم للكيد له ، وأخشى أن يكون من أسباب ذلك أنه ولي العهد ، وأنه يسد الطريق على أبناء هشام . ولعله لو تخلى عن هذه الولاية لارتدت عنه سهامهم ، ولعاش كما يعيش غيره ، ولسكنت عنه ألسن السوء .

وبينا هم في الحديث إذ بدت لهم من النافذة ، عن بعد ،

جماعة من الفرسان ، تشب الكلاب من حولهم ومن خلفهم ،
وقد سار في المقدمة فارس معتدل القامة ، كأنه عامل الريح ،
وهو يعبث بسوطه في الهواء . فقال السلمي : هذا هو الوليد ومعه
فتيانه ، وقد قدموا من الصيد ، وسيكونون بيننا بعد قليل .
فتمكن الزهري في مجلسه ، وتمم بكلمات ربما كانت تسيحاً ،
وربما كانت استنكاراً . ومضت عينا ابن عنبسة بالشر ،
وتنحنيح يزيد بن الوليد وقال في حزن وأسى :
- وهكذا تدور حياة هذا الشاب بين مرح وهو وغناء
وطرب ! يا لضبعة بني أمية !

ويصل الوليد إلى القصر . ومعه من ندمائه كاتبه عياض بن
مسلم . وابن سهيل ، والمنذر بن أبي عمر ، وعبد الصمد بن عبد
الأعلى . فيسرع إليه غلامه رستم الفارسي ، وخادمه سبرة ،
فيخبرانه بكل ما دار بين القوم من أحاديث ، فيعبس وجهه
قليلاً ، ثم ينبسط عن ابتسامة ماكرة ، فيها عناد ، وفيها
تشف ، وفيها انتقام وعبث . ثم يقول : أبعثهم إلى هشام
لينصحوني أم يمهّدوا السبيل إلى خلعي من ولاية العهد وتولية
ابنه مسلمة ؟ والله لن أخلع ما وضعه الله في عني أو أموت دونه !
يقولون إنني لاه عابث ، سأريهم يا سبرة كيف أعبث بهم ،
وكيف أهو بأشياخهم ، وسأريهم أني لأبالي بما يذيعون عني من

كذب وبهتان . ادع عمر الوادى وأبا كامل ، وادع جميع المغنين .
فسوف يعرفون اليوم من هو الوليد بن يزيد ؟ وانطلق سبرة يطبع
أمر مولاه ، وما هي إلا لحظات حتى سمع رنين العيدان ، ونقر
الدفوف ، وأقبل المغنون ومشى أمامهم الوليد نحو زواره . فلما
دخل عليهم كان أبو كامل يغنى :

عللانى واسقىانى من شراب أصفهانى
من شراب الشيخ كسرى أو شراب الهرمزان
إن بالكأس لمسكا أو بكفى من سقانى
إنما الكأس ربيع يتعاطى بالبنان
وكانت القيان تدق بالكفوف والدفوف . ويمشين فى خفة
ومرح . كأنهن الحمام ترف رفيفاً . ثم اتجه الوليد إلى
عمر الوادى صائحاً : يا جامع لذتى وعمي طربى . غنى من
خفيف الرمل بالبصرة . فانطلق يغنى :

اصدع نجى الهموم بالطرب
وانعم على الدهر بابتة العنب
واستقبل العيش فى غضارته
لا تقف منه آثار معتقب
من قهوة زانها تقادمها
فهى عجوز تلو على الحقب

أشهى إلى الشرب يوم جلوتها
 من الفتاة الكريمة النسب
 فقد تجلت ورقّ جواهرها
 حتى تبدّت في منظر عجب
 فهي بغير المزاج من شرر وهي لدى المزج سائل الذهب
 في فتية من بني أمية أهل المجد والمآثر والحسب
 ما في الوري مثلهم . ولا بهم مثلى . ولا منم لمثل أبي
 وما كاد ينهى من غنائه حتى هجم عليه الوليد ، وأخذ يقبله
 ويخلع من عقود الجواهر التي يتحلى بها ويضعها في عنقه .
 وهنا لم يطق الزهري الصبر ، فهمّ بالوقوف ودعا صاحبيه
 إلى الخروج ، ولكن يزيد بن الوليد اجتذبه من كفه وهو يقول :
 إننا لا نستطيع أن نغادر القصر من غير أن نقضى حاجة هشام ،
 فإنك تعرف ثورة غضبه على من يتهاون في تأدية ما يطلبه منه .
 ولح الوليد ما يدور بين القوم فصرف المغنين ، ثم أقبل على
 الزهري في أدب وخشوع وكثير من الوقار ، كأن لم يكن شيء ،
 وكان ما ملأ البهو من لهو وطرب منذ لحظة لم يكن منه شيء .
 أقبل على الزهري فحياه ورحب به ، ثم نظر إلى يزيد بن الوليد
 وإلى ابن عنبسة نظرة صلف ، أتبعها بتحية ، فيها تيه ، وفيها
 اعتزاز . ثم أخذ يسأل الزهري عن مسائل في الحديث وغريب

اللغة والقرآن ، والقوم في دهش جارف ملك عليهم ألسنتهم ،
وأذهل عقولهم . فلما هدأت نفس الزهري قال :
- إننا جئنا إليك يا بني من قبل الخليفة لنسدى إليك
النصح ، وندعوك إلى ترك ما أنت فيه من هوي يقضى على المروءة ،
ويعبث بالشرف . وقد ضاق الخليفة ذرعاً بما يسمعه عنك ،
وما ينقل إليه من أمرك . ثم إنه الآن ، وقد تقدمت به
السن ، يخشى أن يترك الخلافة في يد من لا يصونها أو يستطيع
التفح دونها . وهؤلاء المسودة - كما يسمونهم - أو دعاة بني
العباس ، قد ظهروا بخراسان ، وأصبح لهم عديد وعدة ،
وأشباع وأنصار . فإذا لم يحم الخلافة رأى نافذ ، وعزم باطش ،
ضاع الملك الذي أثلموه . ولاقى بنو أمية من أعدائهم شر
ما يلاقى الدليل المقهور . فالخليفة يندرك ويدعوك إلى التوبة ،
وينذ ما أنت فيه . ويطلب إليك أن تسرح ندماءك وأصفياءك ،
وأن تبدئ حياة جديدة كلها جد وصلاح ، وابتعاد عن الدنيا ،
واهتمام بشئون الدولة حتى تكون أهلاً لولاية العهد .
كان الوليد ينصت عابساً مفكراً يعبث بأصابعه في شعرات
لحيته . وما كاد ينتهي الزهري حتى أرسل فقهية طويلة اهترت
لها جوانح صدره . ثم نظر إلى القوم وقال :-
- الأجل ذلك جثم ؟ ومن أجل هذا أتعبتم دوابكم حتى

بلغتم قصرى؟ لقد سخر منكم هشام وغرر بكم . إن ما يجرى فى قصرى من اللهو العفيف لا يزيد عما يجرى فى قصور فتيان بنى أمية . ثم التفت إلى ابن عنبسة ويزيد وقال : وعما يجرى فى دار ابن عنبسة وفى قصر يزيد ، وإن أبناء هشام أنفسهم يتمتعون بالحياة طولا وعرضاً وعمقاً . ولكن هشاماً يريد شيئاً آخر ، يريد أن يسخركم من حيث لا تشعرون فى مأرب هو أقصى أمانيه ومنتهى آماله ، يريد أن يهدم هذا السد الذى يحول بين ابنه مسلمة والخلافة . يريد أن يخلع عنى ولاية العهد بعد أن أقسم عليها أمام أبى أغلظ الأيمان ، وأعطى أوثق العهود ، ليقدمها إلى « أبى شاكر » هدية غالية ثمينة تبقى فى أولاده وأحفاده يد الدهر . ولم ير للوصول إلى ذلك من سبيل إلا أن يثلب عرضى ، ويكثر فى قالة السوء ، ويبعث حولى جواسيسه وعيونيه ليجعلوا من الفأرة جملاً ، ومن بيت النملة قصرأ ، ويملثوا الدنيا بأخبار زندقى ، حتى لقد أصبحت حديث السهار ، ومثلاً شروداً فى اللهو وحب الطرب . وإنى أسخر منه ومن أعوانه ، وأزيد فى نكايته بإصرارى على ما أحب ، وتمسكى بما يكره . ثم إنه أراد أن يخطو خطوته الأخيرة فبعثك يا ابن شهاب ، وأنت من أنت فى رأى العامة والخاصة علماً ودينياً ونسكاً ، ليستشهد بك لدى الناس إذا خلعتنى ، وليقول لهم لقد صبرت عليه كثيراً فلم يزدجر ،

ونصبت له كثيراً فلم يرعو . وهذا الزهري على ما أقول شهيد .
لقد حرمني العطاء منذ عدت من الحج ، وضيق على وعلى
ندمائي ، ولكني لم أبال به . ولم آبه له . وإن لي من ميراث
أبي ومن أموال أخوالي ما يزيد عن حاجتي ، وإن في نفسي
يقيناً لا يزعه إرهاب هشام . ولا تنقص منه صولة هشام ،
ذلك أني سأكون خليفة على رغم أنوف بني أمية جميعاً ، وأن
هشاماً سيموت ويزول ملكه . ويذهب معه نهمه . وتدفن
مطامعه . وسأكون من بعده الخليفة الأموي القتي . وسوف
أثيب أصدقائي أجزل الثواب . وأذيق أعدائي مرّ العذاب .
فلقد أعددت في سرداب القصر مائة قيد من حديد كتبت على
كل قيد اسم صاحبه . ثم التفت إلى ثلاثهم وقال : وأكبر
ضني أن أسماءكم بين ما كتب من أسماء . وسوف يقول الناس
إن الوليد لم يكن غراً مائتاً . ولم يكن مغفلاً ماجناً ، لأنه عرف
أعداءه فحقهم . وعرف أجباهه فأجزل عطاءهم .

أنا ابن أبي العاصي وعثمان والدي

ومروان جدي ذو الفعال وعامر

أنا ابن عظيم القريتين وعزها

ثقيف وفهر والعصاة الأكابر

نبي الهدى خالى ، ومن يك خاله
 نبي الهدى يقهر به من يفاخر
 ثم وقف ومد يده إلى الزهري وهو يقول : إذا لقيت هشاماً
 فقل له عنى :

كفرت يدا من منعم لو شكرتها
 جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
 رأيتك تبنى جاهداً فى قطيعتى
 ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبنى
 أراك على الباقيين تجنى ضغينة

فيا ويحهم إن مت من شر ما تجنى !
 كأنى بهم يوماً وأكثر قولهم
 ألا ليت أنا ، حين « يا ليت » لا تغنى
 ثم ترك البهوفسار خلفه غلاماه وترك القوم مشدوهين حائرين ،
 فأخذ الزهري يجمع ثيابه ويتهبأ للخروج ، وهو يقول : صدق
 رسول الله : إن لكل دين خلقاً ، وإن خلق الإسلام الحياء .

رشد وغي

كان الوليد من أصبح الناس وجهاً ، وأشدهم قوة ، وأرقهم طبعاً ، وأظرفهم حديثاً . وكان فارعاً متين البناء يكاد يتفجر منه ماء الشباب ، وكان أعظم ما يجتذب إليه النظر عيناه السوداوان الواسعتان اللتان يلتمع منهما وميض وهاج ، فيه القوة والعزيمة والشراسة ، ثم لا يكاد يظهر هذا الوميض حتى يختفي وتأخذ مكانه نظرات ذابلة ناعسة ذاهلة ، فيها شعر ، وفيها خيال . وفيها ما يشبه الدهول . وكان يلبس حلة خضراء من الحرير الدبقي فوقها جبة بيضاء طرزت حواشيها بالذهب وتغطي رأسه عمامة من الخز الأحمر حليت أطرافها بالدر الثمين ، ويتقلد عقوداً من نفيس الجواهر المتألثة الباهرة الألوان . وكان يغير هذه العقود في اليوم مراراً كما يغير حلله وأثوابه .

قصده الوليد بعد أن ترك من جاءوا لنصحه إلى حجره فسيحة كان بها جماعة من ندمائه وإخوانه . وكان بينهم أشعب بن جبير مضحكه ومنذره ومسلية . وكان أشعب آية زمانه في سرعة البديهة . وتوقد الذكاء . وحسن الحيلة ، وإجادة النادرة ،

وإثارة الضحك من غريب ما يقول وعجيب ما يفعل .
وكان لا يحب أن يزاحمه أحد في فنونه والأعبيه . فقد زعموا
أن رجلا بالمدينة حاول أن يسلك مسلكه ، وأخذ يحاكيه في
مذهبه ونوادره ، حتى استطابه الناس وأعجبوا به ، وعلم أشعب
بخبيره فرقبه حتى عرف أنه يختلف إلى مجلس لبعض فتيان
قريش يحادثهم ويضحكهم ، فصار إليه ثم قال له : بلغني أنك
قد نحوت نحوى ، وشغلت عني من كان يألئني ، فإن كنت
مثلي فافعل كما أفعل . ثم غضن من وجهه وعرضه وشنجه حتى
صار عرضه أكثر من طوله ، وصار في هيئة لم يعرفه بها أحد .
ثم أرسل وجهه وقال : ثم افعل هكذا ، وطول وجهه حتى كاد
ذقنه يتجاوز صدره ، وصار كأنه وجه الناظر في سيف لامع .
ثم نزع ثيابه وتحادب فصار في ظهره حذبة كسنام البعير ،
وأصبح طوله مقدار شبر أو أكثر . ثم قام فتمدد حتى صار أطول
ما يكون من الرجال . فضحك القوم حتى أغمى عليهم ،
وبهت الرجل فما تكلم بنادرة ، ولا زاد على أن يقول : يا أبا العلاء
على الله عهد ألا أعاود ما تكره ، وإنما أنا تلميذك وخريجتك .
وكان أشعب في ذلك الحين قد جاوز التسعين ولكنه بقي
مستكملا قوته ، حافظاً لفظه ودعابته . وكان دقيق الجسم
ناحله ، أزرق العينين أحولها ، أصلع الرأس حتى كأن رأسه كرة

من الشمع اللامع . وحينما ورد على الوليد حظى عنده فأمر خدمه أن يلبسوه سروالا من جلد قرد له ذنب طويل . وأن يشدوا في في رجله أجراسا وفي عنقه جلاجل .

دخل الوليد على ندمائه باشا مبتهجا كأن وفد هشام لم يثر في نفسه هما ، ولم يكدر له صفواً . فشرع ابن سهيل يقول :
 - لقد أحسنت إجابتهم يا مولاي وكشفت خديعتهم ، ولكنني أخشى ألا يقف هشام عند هذه الغاية ، وأخشى أن يكون ما فعله اليوم إنما هو تحفز لهجوم ، وطلبة لمكيدة جديدة . فقال عياض :

- إن هشاماً لا يستطيع أن يمس الوليد ، ولكنه سيصيب غضبه علىّ وعليك يا أبا وهب . فقد بلغني من مولاه يعقوب - وهو جاسوس لي عليه - أن حديثاً جرى منذ يومين بشأن الوليد وندمائه . وأن جواسيسه نقلوا إليه بعض شعرك الذي تمدح به الأمير وتذكر ما يرجى منه إذا ولي الخلافة ، وترى فيه هشاماً بأقبح الصفات . فغضب حتى كاد يعود حوله عمي ، ثم صاح : والله لأقصن جناحيه . ولأفرقن عنه قرناء السوء الذين يمالئونني علىّ ! والرجل بطاشر منتقم . يقتنص العصفور من بين براثن النسور . ولا يترك أعداءه للمقادير . وهنا قال عبد الصمد بن عبد الأعلى :

- وكل حقه على أنى لم أخضع لأمره ، ولم أقنع الوليد بالتخلي عن ولاية العهد . فأسرع عياض وقال :

- إن لى ولك عنده ذنوباً لا يحصيها العد ، ولكننا لن نبالى به ، ولن نأبه لو عيده ، وسنكون ألصق بالوليد من جلده ، وأقرب إليه من عقوده ، ولو لقينا فى سبيل ذلك الموت . والله غيب هو مظهره ، ولعلها غمرات ثم ينجلين ، وظلمة يتبعها سفور الصباح . إن الرجل مضطرب مصاب بمرض يسمى ولاية العهد ووجوب انتقالها إلى ابنه مسلمة . فصرخ الوليد :

- دون هذا وتسيل الدماء . إن ولاية العهد قد كتبت فى سجل القدر ، ولن يستطيع هشام أن محو مدادها ولو استعان بأمواج البحار . ثم قام فى اختلاج واضطراب إلى ندمائه فأخذ يقبلهم واحداً واحداً ، والدموع تنهر من عينيه ، وهو يقول :
 أنا أعلم أن المكروه سيصيبكم من أجلى . ويل لى ! وويل لكم منى . أليس مما يمزق القلب أسفاً أنى لا أقدر أن أدفع عن أصدقائى وخلصائى ؟ إننى إزاء بطش هذا الرجل أضعف من ذات خمار . ولقد عرف كيف ينتقم منى فيكم . وعرف كيف يحرمنى بفقدكم طيب الحياة . إننى أعلم أن كلمة واحدة من فى تنقذكم جميعاً ، ذلك بأن أذهب إلى هشام وأقول له إنى تخليت راضياً عن ولاية العهد ، ولكنى لن أفعل شيئاً من

هذا ، لأنى أعلم أنى أحب إليكم من أنفسكم ، وأنكم تفلدونى بأرواحكم ، وأن أكبر آمالكم أن أصبح خليفة وأن أشنى نفسى بدماء أعدائى . ثم ضحك طويلاً حتى كادت تسقط عمامته ، وقال : موتوا مطمئين أيها الأوفياء . ثم التفت إلى ابن سهيل وقال : ما أجملك مصلوباً يا أبا وهب ، وقد امتدت ذراعاك فى الهواء كأنك لا تزال تذكر عناق الحسان . لا تجزع يا حبيبي ، ومث آمناً فسأقتل بك عشرين فتي من فتيان بنى أمية . أما أنت يا ابن مسلم فما تطيب له نفسك أن تعلم أن سيفاً منذ طبعت السيوف لم يقطع عنقاً أشرف ولا أكرم من عنقك . فلا تبتئس أيها الصديق . وسر إلى الموت كريماً ، فسأقتل بك خمسين فتي من فتيان بنى أمية . وهنا صاح أشعب بصوت يشبه نقيق الضفادع قائلاً : أما أنا أيها الأمير فسوف أموت فرحاً مسروراً ، لأنك ستقتل بنى مائة عجل من عجول بنى أمية ! فأغرق القوم فى الضحك . وقام الوليد يعدو وراءه . فقرأ منه وهو يقفز أحياناً ، ويمشى على رأسه أحياناً ، ولجلاجله صليل ورنين . ثم صاح به الوليد :

— ماذا كان جواب الرسالة التى بعثتك بها يا قرد السوء ؟
ولم لم تخبرنى بما تم فيها بالأمس ؟
— انتظرتك حتى تفرغ من مجالسك يا أبا العباس ،

وكنت أظن أن ذلك لن يكون إلا في العام المقبل .
 - سأكون في العام المقبل خليفة فلا أحتاج إلى
 الاستشفاع بك .

- ولكنك ستكون بطبائعك الوليد بن يزيد الذي نعرفه
 جميعاً فلا تستغنى عن شفاعتي . فضحك القوم ، وقال ابن
 سهيل : ما تلك الرسالة أيها الأمير ؟

فتأوه الوليد وغشيت وجهه سحابة من الحزن وقال :

- رسالة إلى سعدة .

- ألا تزال تذكرها ؟

- دعني بالله يا ابن سهيل ولا تثر لواعج نفسي ، فإنني
 كلما ذكرت عهداً طاربي الشوق إليها وهزني نحوها الحنين .
 إنني رجل منكود الحظ ، شقى الطالع ، لا أكاد أصل في سلم
 السعادة إلى درجة أشرف منها على الحياة حتى يسقط بي السلم
 في هوة لا ينادى وليدها ، ولا يرجى فقيدها . لقد كان حيننا
 سماوياً لم ينعم بمثله زوجان فوق هذه الأرض الفانية ، ولقد مرت
 بنا سنوات كأنها بسبات الروض لأشعة الصباح عشنا فيها
 تظلنا دوحة الحب سعيدين هاتئين .

- إلى أن رأيت أختها سلمى .

- إلى أن رأيت أختها سلمى يا ابن سهيل ، ويلاه . ليت

هذا اليوم لم يكن . ذلك كان يوم أن ذهبت لأعود أباها سعيد
ابن خالد . وإنه ليوم بالغ الأثر . شديد الخطر ، تبدلت فيه
حياتي ، واضطربت من بعده أيامي . لمحت فيه سلمى وقد
برزت بوجه لم تشرق الشمس على أجمل منه . وقامت حولها
جواربها ليسترنها عن فقرعتين طولا ، فاهترها قلبي . ونخفت
بجوانحي ، ورحت بها صبا متبولا لا يستقر لي قرار ، ولا
ينطوي أوار .

— لذلك طلقت سعدة لتفوز بأختها .

— نعم طلقتها في لحظة جنون . وكنت أظن أن الوصول
إلى سلمى بعد ذلك من أهون الأمور ، وأنه ليس على إلا أن
أخطبها من أبيها فيجيب شاكرًا مسرورًا .

— ولكن هشاما وقف بينك وبينه ، وحال بين الثمرة
اليانعة وجانيها .

— نعم يا أبا وهب فرجعت صفر اليدين ، أندب
محبوبتين ، وأعاني آلام غرامين . فلا على سعدة حصلت ،
ولا بسلمى ظفرت .

— والآن تريد أن تعود إلى مودة سعدة بعد أن هجرتها
وهجرتك وبعد أن أصبحت ذات بعل ؟

— إن غرامى بها يكاد يصل إلى حد الجنون ، وإن لي أملا

في أن تنقسم عقدة زواجها فأعود إليها كما كنت زوجاً وافر
الحظ سعيداً .

— عجيب كل أمرك أيها الأمير ، وأعجب ما فيه أنك بعد
أن عاودك الهيام بسعادة لا تزال تحب سلمى .
— لا أزال أحبها ؟ إنني أحبها كما يقول ابن أبي ربيعة :
« عدد الرمل والحصى والتراب » إن لي في الحب يا ابن سهيل
مذهباً لا تعرفه .

ثم اتجه إلى أشعب وصاح : ماذا كان جواب الرسالة أيها
القرء الأحمق ؟ فتقدم منه أشعب وهو يتصنع الخوف وقال :
— ذهبت إليها بالأمس ياسيدي فلما أذن لي عليها ، رأيت
صورة رائعة الحسن ما وقعت على مثلها عيناى ، فلكنتى
الدهشة . وتعثر بي لساني ، فلما اطمأنت نفسى . واستقر بي
مجلسى . وقفت أقول وأنا أرتعد رعباً : يا سيدتى هذه رسالة
مولاي الوليد إليك . وهو يقول لك فيها :

أسعدة هل إليك لنا سبيل ؟ وهل حتى القيامة من تلاقى ؟
بلى . ولعل دهرأ أن يواتى بموت من حليلك أو طلاق
فأصبح شامتاً وتقر عيني ويجمع شملنا بعد افتراق
وما كدت أتم البيت الثالث حتى صرخت في وجهى .
وأخذت تصيح بخدمها : خذوا عنى هذا الفاسق الفاجر .

جرّوه من رجليه ثم اقتلوه في بستان القصر ولا تدنسوا بدمه بساطي . فلم أملك نفسي من الرعب والوهل ، وتعلقت بطرف ثوبها في ذلة وتوسل وأنا أقول : ارحميني يا مولاتي . ارحميني بحق جدك عثمان بن عفان . لقد والله كنت أعرف أني مقدم على مثل هذا ، ولكن ماذا أصنع وأنا أشعب ، وقد أغراني ثمن هذه الرسالة المشئومة ؟ إن ثمنها يا مولاتي عشرة آلاف درهم ! عشرة آلاف درهم ! فابتسمت قليلا وقالت : والله لأقتلنك أو تبلغه كما بلغتني : فهذأت نفسي وقلت : وماذا تهين لي من أجر علي رسالتك ؟ قالت : بساطي الذي تحتي . قلت : قومي عنه إذا فإني لا أحب بيع النسبئة . فقامت عنه وطويته تحت إبطي ، ثم قلت : هاتي رسالتك جعلت فداك . قالت : قل له : أنبكي على لبني وأنت تركتها ؟ فقد ذهبت لبني ، فما أنت صانع ! ؟ وما كاد ينهي حتى وثب عليه الوليد كأنه الحمل الصائل ، ولكن أشعب استطاع أن يفر منه قبل أن يلتمه بسوطه فصرخ الوليد : إنها تقول : فما أنت صانع ؟ الذي أصنعه يا ابن أم الحلندج أن أدليك منكساً في بئر ، أو أن أقذف بك من قمة القصر . أو أن أضرب رأسك بسيفي ضربة أطيح بها رأسك . هذا هو الذي أنا صانع . فوقف أشعب في ثبات وثقة وقال :
 - والله ما كنت لتفعل شيئاً من هذا .

– ولم يا ابن المجلودة ؟

– لأنك لم تكن لتعذب عينين نظرنا إلى سعدة . فارتد
الوليد عنه وهو يتأوه ويقول : نجوت يا ابن الورهاء . اعزب
عني أيها الأزرق المشثوم .

وأذن مؤذن المغرب فانتفض الوليد كمن يرفع رأسه من بلحة
غامرة ، وتبدلت حاله ، ولبسته صورة رائعة من الخشوع
والتبتل ، ونظر إلى السماء في ذلة وخشية ، وأسرع غلامه سبرة
فأحضر إبريقاً وطستاً فتوضأ ، وقام القوم فتوضئوا ، ثم صاح
بصوت هز أرجاء القصر : الصلاة الصلاة . ونهض فأم من بالقصر ،
فلما فرغ من الصلاة أخذ يجاذب ندماءه طرائف الأحاديث
والأنخبار ، حتى إذا مر طرف من الليل صاح : أين النوار ؟
أين سعاد الكوفية ؟ أين جامع لنتي ومحيي طربي ؟ أين عمر
الوادي ؟ وكأنهم جميعاً كانوا يترقبون هذا الأمر ، فما مرت لحظات
حتى أقبل الجوارى والمغنون . فطلب إلى عمر الوادي أن يغنيه
بشعره في سلمى ، فعزفت العيدان ، وارتفع صوت الناي ،
ودقت الدفوف ، وأخذ عمر يغني هزجاً بالبنصر .

يا سامي يا سليمان كنت للقلب عذابا
يا سليمان ابنة عمي برد الليل وطابا
أيما واش وشي بي فاملئي فاه ترابا

ريقتها في الصبح مسك باشر العذب الرضا با
 فطار عقل الوليد من الطرب . ونخلع جبته وقذف بها في
 وجه عمر وهو يقول : خذها لا بارك الله لك فيها . ثم زدني بالله
 زدني . فانطلق يغني رملا بالبصر :

يا من لقلب في الهوى متشعب ؟
 بل من لقلب بالحبيب عميد ؟
 سلمى هواه ليس يعرف غيرها

دون الطريف ودون كل تليد ؟
 إن القرابة والسعادة ألقا

بين الوليد وبين بنت سعيد
 فما أتم غناؤه حتى قام الوليد فاخطف الدف من جاريته
 صدوف غاضباً وقال : أنت لا تحسنين الإيقاع يا جارية !
 دق عليه أنت يا ابن عائشة ، وغننا بالله يا أبا كامل ، فأسرع
 يغني :

ويح سلمى لو تراني	لعناها ما عناني
متلفاً في اللهو مالي	عاشقاً حور القيان
إنما أحزن قلبي	قولي سلمى إذ أتاني
ولقد كنت زماناً	خالي الذرع لشاني
شاق قلبي وعناني	حب سلمى وبراني

ولكم لام نصيح في سليمان ونهائي
فكاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب ، فلما هدأت نفسه ،
وثب مسرعاً إلى الجناح الذي تسكنه أمه . وهو يصيح : يا سيرة
اطرد المغنين . واصرف الجوارى . فقد سئمت هذا العبث .
أخرجهم من القصر إن شئت فإنهم جنود إبليس في هذه
الأرض .

دخل الوليد على أمه حزينا مطرقاً يكاد يظفر الدمع من عينيه ،
وكانت أمه بنت محمد بن يوسف بن الحكم الثقفى أخى الحجاج
ابن يوسف . فى نحو السادسة والأربعين ، وهى على تجاوزها
ربعان الشباب ، لا تزال تزهى بلمحات جمال بارع ، لم تذهب
بنضارته السنون . وكانت مولعة بالوليد كثيرة التدليل له .
والرفق به ، والإغضاء عن هفواته .

دخل عليها فراها جالسة على أريكة نجدت بالحرير ،
وطرزت ستاثرها بالقصب ، وقد لفت رأسها بنحمار من الحرير
الأسود ، فبدا منه وجهها كما يبدو البدر فى حلك الظلام .
وكانت تقرأ القرآن ، وأبورقية أمامها ممسك بالمصحف يستمع
لتلاوتها .

وكان أبورقية هذا فى طليعة شبابه شديد الذكاء متوقد
القريحة ، تجرد لطلب علوم الدين والقرآن ، فأوغل فى الدرس .

وواصل فيه ليله بنهاره ، فغلبت عليه المِرة السوداء ، فاختلط عقله ، وأصابته لوثة ، وانتابه البله في أكثر أحواله . ولكنه كان يفتق أحياناً فيثوب إليه عقله ، ويعاوده ذكاؤه ، ويصدر عنه من الدهاء والمكر ما يعز على أكثر العقلاء . وقد يرى في أثناء إفاقته أن من الخير له أن يتباله ، فلا يكاد يفرق من يراه بين بلاهته المطبوعة ، وبلاهته المصنوعة . ومما يؤثر من نوادره في إحدى نوبات جنونه . أنه كان يحمل مرة في طرف ثوبه بيض دجاج ، فأحرده الصبيان وهموا برجمه بالحجارة ، فخاف على البيض منهم ، فوضعه على الأرض وجلس عليه حتى لا يراه منهم أحد .

واتفق عند دخول الوليد أن كانت أمه تقرأ قوله تعالى : « نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » . فانكب على يديها يقبلهما في حزن ونحشوع ، وهو يجھش بالبكاء ويغمغم : نعم يا أماه ، إنه هو الغفور الرحيم ، ولكن عذابه هو العذاب الأليم ، فأين أكون من هذين ؟ وهل تتسع رحمته لمثلى ؟ إنه كريم يقبل التوب . ويغفر الذنب ، ولكن أين غفرانه منى وأنا أشرد منه شراد البعير ؟ أسأليه عنى يا أماه أن يرد عنى كيد الشيطان ، فأنى أخجل من دعائه والابتهاال إليه . نخذينى إليك يا أماه ، وضمينى إلى صدرك ، فلعلى أعود كما كنت

طفلا نقي الذيل طاهر النقية ، فقد استعبدتني نفسي ،
وأثقلتني همومي . فأقبلت عليه أمه تمسح على رأسه في حنان
ورفق ، وتملأ وجهه بقبلاها ، ثم قالت :

– خذف عن نفسك يا ولدي ، فإن الدموع تغسل الذنوب ،
والخوف من الله أول مراتب التوبة النصوح . ثم ابتسمت وأخذت
تربت كتفه وتقول : ولكنك يا بني لا تكاد تعري أفراس الصبا
حتى تسرجها وتركض بها غير مبال ولا هباب ، ولا تكاد تحطم
كأساً من الالهو حتى يسبك لك الشيطان كأسات . إن قابك
يا بني قاب مؤمن . إذا تيقظ كشف لك وجه الحق ، فدعه
دائماً متيقظاً .

– ليتني أسطيع يا أماه ! إن ابن إبليس تمنى على أبيه
لعبة ياهو بها فلم يجد له اللعين سوى . إنني أفيق كما يفيق
المحموم ثم أعود إلى الحمود . ويلتمع في نفسي نور من الحق كما
يلتمع السراج في آخر الليل ثم يخبو . رأيت هذا المجنون أبا رقية . . ؟
فصاح أبو رقية في استنكار : لست مجنوناً ولكني أشعر بالمجنون
أحياناً حيناً أراني مدفوعاً إلى حب أمثالك يا أبا العباس ، وإلى
بذل ذات نفسي لدفع الشر عنهم .

– أتحنيني يا أبا رقية ؟

– نعم وأركب كل صعب للوصول إلى ما يرضيك .

– أقول حقاً أيها الآباء ؟
 – لست بأب له لأنني لا أشرب إلا إذا ظمئت . أما غيري
 فيشرب وهو ريان .
 – وكثيراً ما صفروا لك لتشرب .
 – خير لي أن أشرب مع الحمير من أن أشرب مع
 قرناء السوء .

– أما ذقت الحمرياً أبا رقية ؟
 – ذقتها بعيني عند ما رأيت عربدة المخمورين .
 – تبا لك من معتوه . والله ما رأيت لك مثلاً .
 – إنك ترى كثيراً من أمثالي في مجالس الشراب .
 فابتسمت أم الوليد وأشارت إلى ابنها ان يكف . ثم
 سألت : ما شأن هؤلاء القوم الذين جاءوا اليوم ؟ لقد أخبرتني
 صدوف بكل شيء .

– صدوف ؟ إنني لا أحب هذه الجارية يا أمي على جمالها
 وكمال أدبها . لا أدري لماذا . ولكنها نفرة أشعر بها كلما مددت
 إليها عيناً .

– إن صدوف من خير جواريك نخلقا ونحلقا . ولقد شككت
 لي منذ أيام صدودك عنها . وانصرافك إلى غيرها .
 – إن الحب والبغض شيئان نحسهما ولا نعرف أسبابهما .

— هذا حق ، ولكن الكريم يجامل إذا لم يجب .

— بم أخبرتك صدوف ؟

— أخبرتنى بكل ما قاله لك رسل هشام ، وبكل ما قلته

لهم . إنها خدعة الصبي عن اللبن يا بني ، فلا تركز إليهم .

إن هشاماً يريد أن يتخلص منك ، فأياك أن تتمكنه من مأربه ،

وإن ولاية العهد لأمانة لله في يديك فت دونها كريماً ، ولا تفرج

عنها أصابعك . لقد مات أبوك بين سحرى ونحرى وهو ينظر

إليك محزوناً مكوداً ويقول : الله بينى وبين من جعل هشاماً

بيني وبين ولدى ! فقد كانت ولاية العهد لك بعد أبيك يا بني

ولكن عمك مسلمة أدخل على أبيك الشبهة ، وقد كنت صغيراً .

فحملة على أن يعهد بها إلى هشام على أن تكون لك من بعده ،

والآن وقد استمر هشام مرعاهما ، واستحلى أفاويقها ، بهم

بأن يخلعك ليخص بها ابنه من بعده . إن ذلك أبعد إليه من

الساكين ، وأنأى من الفرقدين . إن بقصر هشام أحابيل

تنصب لك ، ومكايد تدبر لهلاكك ، فكن منها على حذر ،

وامش يا بني كمن يمشى في مسبعة لا يرد الطرف عن ناحية

حتى يصوبه إلى أخرى . وخير سلاح ترد به كيد أعدائك أن

تتخلي عما أنت فيه من هو ، فإنهم يجعلون التشهير بك ذريعة إلى

نبيل ما يؤملون .

– ليتنى أستطيع أن أتخلى .

– كن قوى العزم يا بنى . وغالب نفسك بالصبر والجلد .

ألا تزال تحن إلى سلمى ؟

– حين النيب إلى إفاها . لقد قابلت أباه منذ أيام

أمام باب القرايس فسألته فى سلمى ، وتدلالت له ، وألحقت

فى المسألة ، فما كان منه إلا أن نأى بجانبه فى أنفة وكبرياء ،

فأمسكت بذراعيه وقد اشتد بى الغيظ وقلت : سحماً لك من رجل

منخوب الفؤاد . الآن تردنى عنها ، وكأنى بك وقد وليتُ الخلافة

تسلقنى وتخطبنى لابتك فلا أجيبك . فما كان منه إلا أن نثر

ذراعيه من يدى وقال : إن امرأ يجعل كريمته عند مثلك لحقيق

بأكثر مما قلت . فلم أملك إلا أن أجبه بما يكره من شتائم ،

وتركته مغضباً .

– لقد انقلبت الأوضاع يا بنى فى هذه الدولة ، واضطربت

الموازين . ولقد عشت حتى أرى سعيد بن خالد يأنف من

مصاهرة الوليد بن يزيد . كنت أزور اليوم أم عثمان زوج هشام ،

فسمعت منها أن يزيد بن عنبة يلح فى خطبة أختها سلمى ،

وأن هشاماً يميل إلى تزويجه بها . فوثب الوليد كأنما انقضت عليه

صاعقة ثم صاح : ويل للفاجر . يزيد بن عنبة يخطب سلمى !

إبه أدل من أن يشرف بنيل إحدى وصائفها . ألهذا جاء إلى

اليوم في صورة الأمين الناصح ، وجعل من نفسه صنيعاً
لهشام ليشتهد بي ، ويملاً الآفاق بمذمتي ؟
— أخشى أن يكون تزويجه بسلمي جزءاً من المكيدة التي
تدبر لك .

— لو نال منها شعرة لرؤيت منه سيفي .

وبينا هما في الحديث إذ سمعت ضجعة في القصر ، ودخل
سبرة مدعوراً وهويلهث ويقول : قدم يا مولاي خالد بن القعقاع
رئيس شرطة هشام ، ومعه كثير من أعوانه . فوثبوا على القصر
وقبضوا على ابن سهيل وعياض وعبد الصمد ، وكبلوهم
بالأغلال . ثم ساقوهم إلى سجن الخلافة . وكان أبورقية ينصت
دهشاً ، وقد اتسعت حدقاته حتى كادت تملآن وجهه ، وتتم
بكلمات زاداها الجنون إبهاماً . وسقط الوليد طول الخبر ، ثم أخذ
يئن أنين المجروح ويقول : أصدقائي ! أحبائي ! ندمائي !
اللهم أجرني منه ! اللهم أجرني منه !

أنا النذير لسدى نعمة أبداً

إلى المقاريف ما لم ينجر الدخلا
إن أنت أكرمتهم ألفتهم بطرا
وإن أهنتهم ألفتهم ذللا

أتشمخون ومنسا رأس نعمتكم ؟
 ستعلمون إذا أبصرتم الدولا
 انظر فإن أنت لم تقدر على مثل
 لهم سوى الكلب ، فاضربه لهم مثلاً
 ثم وثب فجأة . وأمر سيرة أن يدعو المغنين . وانطلق من باب
 الحجرة كما ينطلق السهم . وهو يصيح : إلى مطلع الفجر !
 إلى مطلع الفجر !

سجن وإطلاق

كان هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي في نحو الخمسين
 من عمره . وسيم الوجه . أبيض البشرة بادنأ . عريض الجبهة .
 حسن اللحية . يخضب بالسواد . في عينيه حول . وكان حازماً
 ذا رأى ودهاء . من رآه رأى رجلاً محشواً عقلاً . وكان بنحيلة
 جماعاً للاموال . وكان يجلس في هذا الصباح بدار الخلافة ،
 وقد وقف أمامه كاتبه سالم أبو العلاء . وجلس إلى يمينه ابنه
 مسلمة وسعيد . وإلى يساره جمع من رجال بني أمية . منهم
 يزيد بن الوليد وإبراهيم المخزومي ويزيد بن عنبة . وأخذ سالم
 يقرأ عليه ما حمله البريد من أخبار الأطراف . وما بعث به الولاة

والقواد من رسائل ، وما ورد من العيون والحواسيس الذين كان
يبتهم الأمويون في أقطار الدولة .

وقرأ سالم أول ما قرأ رسالة من حسان النبطي . يذكر فيها :
أن خالد بن عبدالله القسري . عسف بأهل العراق ، وسلب
أموالهم بالقهر . حتى لقد بلغت غلته عشرين ألف ألف درهم .
فزجر هشام وصاح : بمثل هؤلاء الولاة تزول الدول ، وتنهار
الممالك . والله لأردننه إلى بغلته وطيلسانه الفيروزي ؟ اكتب إلى
يوسف بن عمر عامل اليمن بولاية العراق . ومره أن يسجن ابن
النصرانية وعماله ، وأن يحتجن كل ما لهم من صامت وناطق . لن
يشرب ماء الفرات بعد اليوم . وأنا ابن عبدالملك . إن الدولة
بولاتها . فإذا فسدوا فسد فيها كل شيء . هل من حدث
آخر يا أبا العلاء ؟

— وهذا يا أمير المؤمنين كتاب من خراسان بعث به عذافر
ابن يزيد يقول فيه : إن خراسان أصبحت عشاً للفتن . ووكراً
لشعبة بنى العباس ، ينشرون فيها دعوتهم ، ويعثون منها
رسلمهم . ويعدون فيها ما استطاعوا من قوة . ويتلقون بالطاعة
ما يأمر به محمد بن علي بن العباس المقيم بالحميمة . وقد كتب
عذافر يقول : إن سليمان بن كثير وبكير بن ماهان ، يعملان
جاهدين في خفية وحنر ، لدعوة الناس إلى بنى العباس ،

وصرفهم عن بني أمية . ويقول : إن شاباً نشأ بأصفهان يكنى بأبي مسلم ، سيكون له شأن وخطر ، وإنه دولة في شخص ، وجيش في رجل ، وإنه ألد الخصام ، واسع الحيلة ، وإذا لم يقض عليه في أول نشأته ، عظم أمره ، وأثارها شعواء لا تبي ولا تذر .

— إن خراسان مكن الداء في هذه الدولة ، وهي حصن أعدائنا الناقمين علينا. وهذا بكير بن ماهان يعمل منذ أن وليت الخلافة على الانتقاض عليها ، وإيغار الصدور على ولايتها . أليس في مملكتي رجل كريم العم والحال ، عربي الأرومة يوجر ربحه في أحشاء هذا الكلب العقور؟ . ويل للخلافة من نصرائها . إنها تتلف إلى حجاج ثان يثبت ما اهتر من أركانها . ثم إني حرت في أمر محمد بن علي هذا ، إنك حينما قلبته لا تجد إلا زهداً وصلاً وانصرافاً إلى الله وتبتلاً . إن اليد لترتعد إذا امتدت إليه بسوء ، وإن السيف ليتحطم في غمده قبل أن يسلم في وجهه . ولكني أخشى أن يكون لابساً غير ثوبه ، وأن يكون ساتراً وراء هذا الزهد خبياً وخديعة وفتكا . وكلما ذكرت خبر أبي معه تملكني الخوف ، واعتصمت بالخذر . ذلك أن محمداً هذا ورد مع أبيه علي أبي ، وكان بالمجلس قائف يلمح ما غاب عن الناس من أحكام القدر ، فلما انصرفا التفت أبي

إلى القائف وسأله : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، ولكنى أعرف من أمره واحدة . قال : وما هي ؟ قال : إن كان الفتي الذي معه ابنه فإنه يخرج من عقبه فراعة يملكون الأرض ، ولا يناوئهم مناوئ إلا قتلوه . فالتفت إليه يزيد بن الوليد وقال :

— هون عليك يا أمير المؤمنين ، فذلك حديث خرافة ، والله لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . وأنصار العباسيين بخراسان حفنة متخاذلة يكنى أن يسوقها أحد عبيدك بالسوط إلى طاعتك .

— لا تسهينوا بصغار الأمور يا بني أمية ، فإنها إحدى علامات زوال الدول .

— إن الدولة بخير يا أمير المؤمنين ، وقد قمت بالأمر فيها ثمانى عشرة سنة فثبت دعائمها ، وشدت أركانها .

— أتستكثر على ثمانى عشرة سنة فى الخلافة ؟ ويل لكم من بعدى ! والله ما تشبث بأهدابها إلا لأصون ملكاً ضيعة أهله ، وعبث به فتيانه ، ولقد أعلم أن كثيراً منكم يعينى بأنى حنى بالخلافة ، أكاد أعض عليها بالنواجذ . نعم إنى عليها حريص ، وبها ضنين ، ولكنى أرى بعين بصيرتى مجداً يترنج ، وعرشاً تكاد تسقط قوائمه ، فأود لو امتدت حياتى ، وتنفس لى العمر حتى أعيد إلى الخلافة مجدهما القديم . عجيب شأن الإنسان ،

لا يكاد يكتمل حتى يذبل ويدركه الموت . وإن في الحياة ومطالبها وغاياتها ما يضيق به عمره القصير الأمد . أليس من أعجب العجب أن تعيش السلحفاة ، وهي من أحقر المخلوقات ، مائتي عام ، وأن تضمن الحياة على الإنسان المسكين بأكثر من ستين أو سبعين عاماً ؟ ولو أنه عاش عمر السلحفاة لصنع العجائب ، وأتى بالمعجزات . وماذا نعمل بالحياة إذا كنا نموت كلما أوشكنا أن نفهم حقيقتها ؟ ثم زفر زفرة طويلة . واتجه إلى كاتبه سائلاً :

— أعندك شيء آخر ؟

— نعم يا أمير المؤمنين قبض الشرط بالأمس على رجل بالقرب من الباب الشرقي كان بداره قيان وخمر وطرب . وقد أحضرناه ومعه البربط الذي كان يعزف به .

ودخل الرجل فوثب هشام من مجلسه واختطف البربط من يده . وهو يصيح مهتداً : والله لأكسرن هذا الطنبور على رأسك أيها الفاجر ؟ فبكى الرجل ، وأغرق في البكاء . فسأله هشام عن سبب بكائه . فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أبكى من خوف الضرب . وإنما الذي أبكاني أنك تهين البربط وتسميه طنبوراً .

وله ينتع الرجل بكأوه ولا توسله . فضرب وكسر بربطه

أو طنبوره على رأسه . وبعد انصرافه اتجه هشام إلى كاتبه يسأله عن قبض عليهم بالأمس من ندماء الوليد ، وعمما فعل بهم .

— قدفنا بهم في سجن الظلام مكبلين يا أمير المؤمنين .
 — إن هؤلاء شياطين الشروأس البلاء ، ولولاهم ما ركب الوليد رأسه ، ولا أطاع هوى نفسه . ولقد بعثت الزهري إليه بالأمس لينصح له فلم يلق منه إلا نكرا ، وإن من الخيانة لعهد الله ورسوله أن تترك الخلافة في يد هذا الفتي . يقولون إنني أريد أن أصرفها إلى ولدي مسلمة ، وأقسم إنني لورأيت في ابن أخي خيراً ما جال هذا الأمر لي بخاطر . إنني أريد أن أرقد في قبري هائناً مستريحاً ، وأن أترك خلق الله في رعاية من يخاف الله . ولو حال ابن أخي بيني وبين ما أحب لهذه الأمة ، لرؤيت منه سيفي غير مستحقب إثماً . وبينما هو منساق في حديثه ، إذ دخل الوليد وهو يمشي في بخترة وعجب ، شامخ الأنف ، أصيد العنق ، فحيا أمير المؤمنين ثم جلس بجانبه حتى التصقت ركبته بركبته ، وكاد يزجمه في مجلسه . ونظر إليه هشام نظرة المغيظ المحقق . ثم أسرع فبسط له وجهه كأنما طافت برأسه فكرة خاطفة صرفته عن نيته . وشرع الوليد يقول :

— لقد بعث أمير المؤمنين إلى نفرًا من جماعته بالأمس ليثلبوا عرضي ، ويخطوا ما رفع الله من كرامتي ، في أثواب ناصحين مشفقين ، وما كنت لعمر الله لأصبر على هذا الضيم ، لولا أنهم رسل أمير المؤمنين . إن أبناء عبد شمس وهم سادة الجاهلية وخلفاء الإسلام ، أقوى شكيمه ، وأحمى أنوفاً من أن يطأطئوا رءوسهم لناصح متطفل . ثم ما هذا الذي فعلته يا أمير المؤمنين مما أقض مضجعك ، وجعلك تترك شئون الخلافة لتفرغ لي ولأخذاني ؟ أحدثت في الدين حدثاً ؟ أم هدمت من الخلافة ركناً ؟ أم جردت للفتنة جيشاً ؟ إنني أعيش في قصرى بعيداً عنك وعن حاشيتك وبطانتك ، ولكني لا أسلم من رقة جواسيسك وتطلع عيونك . حتى أصبحت هدفاً لكل رام . ثم لم يكفك هذا فعملت كادحاً على الانتقام مني ، فقطعت عني عطاءك لأذل لك وأستكين . وأستجدي جدواك . وأقسم بمن خلق للحق ميزاناً . وأعد للطاغين نيراناً ، إنى ما سررت بعطائك ، ولا حزنت لانقطاعه . فقد سبب الله لي من العهد ، وكتب لي من العمر ، وقسم لي من الرزق ، ما لا يقدر أحد دون الله على قطع شيء منه دون مدته ، ولا صرف شيء منه عن مواعده . ولعل من الخير لك يا أمير المؤمنين أن ترعى في

أواصر القربى ، وأن تذكر أبى الذى آثرك بها على ولده .
 فإن تك قد مللت القرب منى فسوف ترى بجانبى وبعدى
 وسوف تلوم نفسك إن بقينا وتبلى الناس والأحوال بعدى
 إنى جئت اليوم يا أمير المؤمنين لا لأطلب شيئاً لنفسى ،
 وإنما جئت لأسألك فى فكاك أصحابى الذين ألقيت بهم فى
 السجن ، وليس لهم من جرم ، إلا أنهم فى حفيّون ، ولعهدى
 مخلصون ، وإذا كان لا بد لغضب أمير المؤمنين من متنفس فليصبه
 على وحدى ، فأنا به أوسع صدرأ ، وأكثر احتمالاً .

فأربد وجه هشام ، وانتفخت خياشيمه من الغضب ، وصاح
 فى وجهه :

— إنى لن أترك الخلافة بين زق وعود ، ولن أتركها لندمائك
 يبيعونها للأعداء . أما ما ذكرت من قطعى ما كنت أجريه
 فإنى أستغفر الله من سبق إجرائه عليك ، وأرجو أن يعفو الله
 عنى بعد أن تداركت الأمر ، وأسرعت بقطع مال كان ينفق
 فى غير وجهه . وأما ندماؤك فهم عندى جذور الشر ومعاول
 الفساد ، وهل زاد ابن سهيل لله أبوك عن أن يكون مغنياً زفاناً ،
 قد بلغ فى السفه غايته ؟ وهو مع ذلك ليس بشر ممن تستصحبهم
 فى الأمور التى أكرم نفسى عن ذكرها . وهل عياض
 ابن مسلم إلا وسيط سوء بينى وبينك ، ومزور أخبار يستشيرك

بها على أهالك وقومك ؟ وهل عبد الصمد إلا رجل احتال
 للوصول إليك ليكون لك معلماً ومؤدباً ، ثم انقلب فاجراً معربداً ،
 وشيطاناً مغربياً ؟ إن سجن الظلام منذ أن بناه الروم في عهودهم
 السحيقة لم تضم جدرانها ، ولم يظل سقفه ، أكثر إجراماً ،
 ولا أخبث أنفساً . ولا أجراً على الشر من ندمائك الملاحين .
 لن يفك لم إسمار ، ولن يروا نور الحياة ، ما دام في نفس
 يتردد . وأقسم لولا صلة القربى التي ذكرتها ، ولولا أن يشمت
 الأعداء بيني مروان ، لألحقتك بهم . يا حرسى ، سر أمامنا
 إلى السجن لنرى الوليد أحباءه فلعله يرى فيهم عظة ومعتبراً .
 - لن أذهب معك يا أمير المؤمنين . فاني أخشى أن

ينقض علينا غضب من الله ونحن في السجن .

- إن غضب الله لا ينقض إلا على الغاوين .

- إن كثيراً من الناس لا يعرفون أنفسهم .

- ولو عرفوها ما هزوا أعواد الخلافة باستهتارهم . ولكنى

الله المؤمنين شرهم .

- وأى شرفي مجالسة صديق وسماع لحن من الثقيل الأول ؟

- زوال الإسلام يا فتى . وذهاب ريح المسلمين . هلم إلى

السجن نمتع النظر بأصدقائك المخلصين .

فسار الوليد خلفه في ثقائل واستكراه كأنما يقاد بالسلاسل ،

ووصل الخليفة والحاشية إلى السجن بعد قليل .
وهو سجن روماني قديم نحت في باطن الأرض ، يتزل إليه
النازل بدرجات تبلغ الست والثلاثين ، وهو متسع الرقعة ،
لا يزيد ارتفاعه عن قامة الرجل . وقد قسم بالبناء حجرات
صغيرة يقيم بها المسجونون ، وبه بئر عظيمة ، بعيدة الغور
تسمى « بئر الموت » تلقى بها جثث من أنقذهم الموت من ويلات
هذه الجحيم . وقد تراكت به الأقدار ، حتى أصبحت أرضاً
فوق أرضه ، واشتد به الظلام حين حرم ضوء الشمس ، وركدت
به روائح العفن والقنذرحين حرم نسيمات الرياح . ولم يكن يفرق
بينه وبين القبور إلا أن سكانه أحياء يشعرون فيتألمون ،
وسكانها أموات لا يشعرون . ظلمة لا تسمع فيها إلا شكاة
انشاكين . ولا ترى فيها إلا أشباحاً هزيلة تروح وتجيء في
ضوء خافت من المشاعل ينحفق في اضطراب وضعف ، كما
ينحفق قلب الطائر الجريح أقصدته السهام ، وسجانون شداد
غلاظ كأنهم زبانية السعير ، وأنات وزفرات تتلهف إلى قسوة
الموت بعد أن يثست من رفق الحياة .

دخل هشام السجن وقد وضع يده على أنفه كراهية أن تصل
إليه ريحه ، ومشى أمامه كبير السجن حتى وصل إلى حجرة
ابن سهيل فرآه ملقاً على الأرض في مسح خلق ، والسوط

ينصب عليه من سجان عنيف صخرى القلب مفتول العضل ،
وهويثن أنين المحتضر ، ويستغيث فلا يجد مغيثاً . فأسرع الوليد
وأمسك بيد السجان ثم وكزه بمرفقه في غضب ونكر ، حتى
ابتعد عنه ، واتجه إلى هشام فقال : يا أمير المؤمنين اجعلني
مكانه . أو بر هذا الجبار الأحق أن يكف عنه . إن الموت
يا أمير المؤمنين أروح له من هذا العذاب . فلوى عنه هشام
وجهه ، وأشار إلى السجان أن يمضي في عمله ، وجذب الوليد
من كفه ، وسار وتبعته الحاشية فشهدوا من عذاب عياض
وعبد الصمد ما تقشعر له الجلود . وكان الوليد حزينا مطرقاً
ينرف الدمع مداراراً . وترسل أنفاسه حسرات إثر حسرات
حتى إذا بلغوا إحدى حجرات السجن رأوا شيخاً في الثمانين ،
وقد طال شعره . وامتدت أظفاره . ولم يبق منه السجن إلا
عينين ذاهلتين ، ونفساً قصيراً متلاحقاً ، وجسماً كادت تبرز منه
العظام . فسأل هشام كبير السجن عنه فقال :

— هذا يا أمير المؤمنين «مجاهد بن حبيب» كان من أصحاب
«سعيد بن جبير» الذي خلع «الحجاج بن يوسف» وخرج
عليه . فلما تمكن الحجاج من سعيد وقبض على أصحابه كان
هذا منهم . فأبى في هذا السجن ونسى ذكره . فبقي هنا إلى اليوم .
— هذا كان في سنة أربع وتسعين !

- نعم يا أمير المؤمنين .
- ونحن الآن في سنة ثلاث وعشرين ومائة . أبقى الرجل منسياً في هذا السجن تسعاً وعشرين سنة ؟ .
- نعم يا أمير المؤمنين .
- وقرب الخليفة من الشيخ وصاح في أذنه : قم أيها الشيخ . فأجاب في صوت خافت :
- وهل أبقى في السجن والمهرم ساقين أقف عليهما ؟
- خبرنا بحديثك .
- نسيته .
- من أنت ؟
- كنت رحلاً فيما مضى ، ولكنني أصبحت اليوم جثة بها نفس يطيل في عذابها .
- أتحب أن نطلق سراحك ؟
- ماتت في الرغبة والرغبة منذ زمن بعيد ، فأصبحت لا أريد ولا أخشى .
- أنا هشام بن عبد الملك الخليفة .
- « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ »
- صدق الله العظيم .

فاتجه هشام إلى كبير السجن وقال : أطلقوا الرجل . ثم التفت إلى كاتبه وأمره أن يمنحه ما يكفيه في أيامه الباقية . وما كاد يخرج من السجن حتى رأى خادمه يعقوب يقبل إليه مسرعاً ، وقد تملكه الاضطراب والفرع ، وهو يصيح :

— مولاي مسلمة يا أمير المؤمنين ! !

— ما شأنه ؟

— اختطفه اللصوص يا أمير المؤمنين ! فبهت هشام

وصرخ :

— اللصوص ؟ أي لصوص ويالك ؟

— نعم يا أمير المؤمنين اختطفه اللصوص .

— كيف ، ثكلتك أمك ؟

— لقد خرج في هذا الصباح كعادته على بردونه الطخاري ،

وصحبته إلى الغوطة ، حتى إذا عزمنا على الرجوع بدا لنا من بعد

رجل يضرب امرأة بسوطه ، لا تأخذه بها رحمة ، وهي تصيح

وتستغيث . فأشفق سيدي على المرأة ، وجرى نحوها لينقذها

وجريت معه . ثم نزل عن بردونه . وتقدم نحو الرجل شاهراً

سيفه . وما كاد يفعل حتى خرج علينا كمين من الخلف

فانقض علينا رجاله . وقبضوا على أيدينا فلم نستطع دفعاً ،

ثم شدوا وثاقنا فلم نستطع حراكاً ، ثم جاءوا فربطوا على في

وفم سيدى ، وحملوه على جواد لهم ، وانطلقوا به فى سرعة الريح العاصفة ، وبقيت مكتوماً مكتوماً حتى عثر بى أحد الأعراب فحل وثاقى فأسرعت إليك يا أمير المؤمنين لتجد إلى إنقاذه سيلاً .

– ويل لهم ! يختطفون ابنى فى حاضرة ملكى وبين سمع أعوانى وبصرهم ! أى طريق سلكوا لا أم لك ؟
– لا أدرى يا أمير المؤمنين . فقد أثارت خيولهم غباراً حجب عنى طريقهم .

– صفهم لى .
– كانوا يلبسون ثياب الأعراب ولكنهم لم يكونوا من الأعراب . وقد دس أحدهم هذه الورقة فى يدى وهو يعقد وثاقى .

– هاتها ويالك ! فناوله يعقوب الورقة . فأسرع إلى قراءتها وكان فيها :

إن لم تطلق عبد الصمد بن عبد الأعلى وابن سهيل وابن مسلم الليلة ذبحنا ابنك كما تذبح الشاة ، وقدفنا به فى فناء قصرك . إننا جادون غير هازلين . وبيننا وبينك غروب الشمس فان أطلقتم نام ابنك الليلة على فراشه ، وإلا فقد أندرناك . صعد هشام بعد أن قرأ الورقة ، وأخذت يداه ترتعشان ،

ورعى الوليد بنظرة كادت تسحقه ، وصاح بكبير السجن : أطلق الكفرة الفجرة أصحاب الوليد ، وسوف يكون لى ولهم شأن ، فإن للعذاب ألواناً غير السجن ، وسيعلم الأندال ما ينتظرهم بعد حين .

هجر ولقاء

ترك الوليد هشاماً وهو يعجب لتصاريف القدر ، ويفكر فى أمر الدين جرءوا على ابن الخليفة فاختطفوه فى النهار المبصر ، كما تختطف السلع أو كما نطر الجيوب . ثم طاف بخاطره أن هؤلاء القوم إنما كانوا يعداؤون لأجله ، ويختطبون فى حبله ، ويناصرونه على أعدائه ، وأنهم ما أنقذوا ندماءه من برائن هشام إلا لحبهم إياه وبغضهم الخليفة . من يكون هؤلاء يا ترى ؟ ومن الذى دفعهم إلى هذه الفعلة الجريئة ؟ ومن هو ذاك الذى أمدهم بالمال ، ورسم لهم تلك الخطة المحكمة ، وذلك التدبير الحاذق ؟ أسئلة لم يستطع الإجابة عنها بعد أن فكر طويلاً ، وأكدّ ذهنه طويلاً ، فسار إلى قصره حتى بلغه فكان أول من قابله أبورقية المعتوه بوجهه الأبله ، وفمه المفتوح الذى لا ينقطع منه سيلان الريال ، فقال الوليد :

– كيف حال الدنيا اليوم يا أبا رقية .

– الدنيا بخير لأنها تجرى على نمط مطرد، وإنما الناس هم الذين يتغيرون ، ولو عاش الناس عيشة البهائم لرأوا أن للدنيا صورة واحدة جمية تتكرر على مر الزمان . وإذا قلنا لهم : عيشوا عيشة البهائم قالوا : إننا مجانين . إن الإنسان هو الذى يشقى نفسه فى هذه الدنيا بمطامعه وبعد مطالبه وضغنه على كل من يزاحمه فى الحياة ، أو يسبقه إلى لقياتها . وكلما نال منها نصيباً زاد طمعه فلون الدنيا بالأوان نفسه . فهو يرى فيها خوفاً وحقداً وخداعاً وطمعاً واغتصاباً . ولو حقق لعلم أن هذه الألوان البشعة إنما هى مرآى ننسه وصورها .

– مرحى أبا رقية . لقد أصبحت حكماً بصيراً بالحياة بعد أن عمى عنها العقلاء .

فضحك أبو رقية ضحكة أشبه بصراخ الأطفال وقال :

– وأين العقلاء أيها الأمير ؟ إني أخشى أن تعدنى منهم ، أليس عجباً أن العقل الذى يعرف الأشياء يعجز عن أن يعرف نفسه . وأن الناس يحصرون المجانين فيمن يرحمهم الصبيان بالأحجار ، ولو علموا لرأوا أن الظالم والقاتل والمدمن والمبذر والشحيح والمزهو بنفسه وكثيراً من أنواع الناس ، لا يعدون فى صفوف العقلاء .

– هل تكره الظلم يا أبا رقية ؟
 – أكرهه وأدفع شره بنفسى وبغيرى . ثم رفع عينيه
 الذاهلتين إلى الوليد وقال :

– هل زرت الخليفة اليوم ؟
 – نعم . هل ذكرته حينما ذكرت الظلم والشر ؟
 – لا . ولكن نبثى أوصلت إليه رسالة من أحد ؟
 فدهش الوليد وقبض بشدة على ذراعى أبى رقية الرخوتين
 وقال :

– من أنباك بهذا أيها الأحق ؟ فابتسم ابو رقية ابتسامة
 الاطمئنان واليقين . وقال :

– الحمد لله لقد أفلح التدبير . وماذا فعل هشام ؟
 – أطلق سراح المسجونين . ومن أين لك علم كل هذا ؟
 – كان ذلك يسيراً على . فان الخليفة حينما أرسل أعوانه
 إلى القصر فقبضوا على أصدقائك وقذفوا بهم فى السجن .
 علمت أن كل ذلك للنكاية بك والإساءة إليك ، فذهبت باكياً
 إلى أمك فنفضت إليها الخبر . فقالت : وماذا أصنع فى
 الخليفة ؟ فقلت : تعطينى مائتى دينار . فابتسمت فى حزن
 وأسى . وقالت : ترشو بهما الخليفة ؟ فقلت : لا ، بل أعطيهما
 « خارجة انقيسى » شيخ لصوص الشام ، فقالت : وما شأنك

باللصوص ؟ قلت : إذا قسا الحاكم تحكّم اللصوص . فتهدت
طويلاً ثم قذفت إلى بيثانية أكياس ، فأسرعت إلى خارجه
ورسمت له طريق العمل ، ودعوت له بالتوفيق .

— لقد أجاب الله دعائك يا أخا « هبنقة » . ثم صاح : أين
أشعب ؟ فجاء إليه يحجل في مشيته كما يحجل القرد راعته عصا
صاحبه ، ثم رفع صوته محاكياً صوت الديك ، ووضع رأسه
على الأرض ورجليه إلى الأعلى ، ثم انقلب فعاد كما كان ،
وقال :

— هل يريد مولاي الأمير أن يعطيني شيئاً ؟

— أعطيك هذا ، ثم قنعه بسوط كان في يده . فأخذ
يحاكي صوت الكلب حيناً يقذف بحجر ، فرمى إليه الوليد
ديناراً فتلقفه بفمه في مهارة بارعة ثم قال :

— الآن نستطيع أن نتحدث . ماذا يريد مولاي ؟

— تعرف ما كان من أمر ابن سهيل وعياض وعبد الصمد .
فقد اعتقلهم الخليفة وعذبهم عذاباً شديداً . ثم أجبر مكرهاً
على فك عقابهم ، وهم الآن في دورهم فاذهب إليهم وأحضرهم
إلى الساعة .

— أتريد أن أحل محلهم في سجن الظلام ؟ إن كل واحد

منهم الآن محاط بجواسيس الخليفة ، فهل تظننى أبا رقية حتى
تقذف بي في هذه المهالك ؟

– أتريد أن تعيش في قصرى منعماً مترفاً دون أن تتعرض
لخوف ؟ إن الغم بالغرم يا ابن جبير .

– لقد لقتنى أمى ألا أحمل غرماً ، وألا أتعفف عن غم .
فأخرج الوليد من كفه كيساً وهزه فسمعت وسوسة الدنانير ،
وقال : وما تقول في هذا ؟

– الآن أذهب ولعن الله أمى . ثم أخذ يمسح وجهه ويطوله
حتى بلغ وسط صدره وأصبح لا يعرفه من كان يعرفه ، ثم وثب
فاختطف الكيس من يد الوليد وانطلق كما ينطلق السهم عن
القوس .

وبعد قليل أقبل ندماء الوليد ضعتى يتوكتون حتى كأنهم
خرجوا من معركة أثخنهم جراحها ، وما كاد يراهم الوليد حتى
انقض عليهم معانقاً مقبلاً ، ثم صاح : على بالمغنين . على
بعمر الوادى وأصحابه . هذه ليلة الليالى وواحدة الدهر ؟ أوقدوا
الشموع جميعاً ، سننسى في هذه الليلة الحياة ، وسننسى
الآلام . وسننسى هشاماً . فأسرع المغنون إلى البهو ودخل بعدهم
نحو الأربعين من الجوارى والقيان ، بين روميات وفارسيات
وتركيات في الملابس الزاهية والحلى الباهر . وكان عمر الوادى

قد لقنهن أبياتاً للوليد في سلمى ، فأخذن ينشدن معاً بصوت
ساحر بين رنين العيدان ونقر الدفوف :

خبروني أن سلمى خرجت يوم المصلى
فإذا طير مليح فوق غصن يتفلى
قلت: هل تعرف سلمى؟ قال: ها . ثم تدلى
قلت: هل أبصرت سلمى؟ قال: لا . ثم تولى .
ولعب الطرب بالرءوس ، وظفر شره العيون بجمال الوجوه
فكاد يلتهمها إلتهاماً . وصاح رستم : لرقص رقصة الفرس ،
لرقص الفترج ولننشد معاً :

نجا عياض وابن وهب قد نجا ونال مولانا الوليد ما رجا
هلم نرقص في هواه الفترجا

فأخذ كل رجل بذراع فتاة ، وتمايلت الرءوس ، وماست
الخصور ، وسأيرت الأقدام دقات الأنغام ، واحمرت الوججات ،
ولعبت العيون ، وانطلقت الضحكات ، وطغى المرح فأطاق لفسه
العنان . وطار العقل وغادر المكان ، وكان صباح ، وكان هرج ،
وكان نرق . وبينما القوم في لهوهم إذ علا عند مدخل البهو صوت
فيه رصنة . وفيه نبل ، فنظر القوم مبهوتين فاذا أم الوليد في جلال
سمتها ، واعتدال قواها ، ترسل نظرات ثاقبة ملؤها الغيظ
والغضب ، فأطرقوا في خشية وخجل . فقالت :

— ما هذا يا بني إن جواسيس هشام تحيط بقصرى من كل جانب ، وقد كنت أرضى كارهة عن الغناء والطرب ، أما رقصات العروج وضجيجهم ففوق احتمالى وأكثر مما تسيغه طاقتى .

وما سمعها القوم حتى تسللوا لوإذا مطرقين وجلين .
 وبنى الوليد وأمه وأبورقية فالتفتت الأم إلى الوليد وقالت :
 يا بني إن من يريد عرشاً لا يصل إليه من هذه الطريق ، وإن هشاماً يقعد لك كل مرصد ، ويسجل كل ما تأتى وما تذر ، ليثبت لرجال بنى أمية أنك لا تصلح للخلافة ، وأن الحقيق بها ابنه مسلمة . ولقد غشى حبي لك على سمعى وبصرى ، فأغضبت عن شىء من اللهو ، ولكنى أراك تستمرئ ما أنت فيه . وتجاوز الحد فيما لا يليق بك . فبكى الوليد بكاء الطفل واحتضن أمه . وسرت العدوى إلى أبى رقية فسالت دموعه مداراً . وقال الوليد . بين النحيب والنشيج :

— صفحك يا أمى . إني ولد عاق حقاً . ولكن ماذا أعمل ونحيان سلمى يعاودنى فى كل لحظة فيؤجج أشجانى ، ويتير أحزائى ؟ وكلما حاولت نسيانه والانصراف عنه وثب أمى ساحراً فتاناً . يعبس مرة ، ويبدم أخرى ، ويغرس فى الأمل حيناً . وليأس أحياناً . حتى كاد يسوقنى إلى الجنون .

إننى يا أمى أحاول نسيانه بهذا اللهو ، وأجهد فى طرده عنى
بضرب الدفوف وعزف المزاهر ، إننى شقى يا أماه . جاه ومال
وسلطان ودولة ، ولكن أين السعادة بين كل هؤلاء ؟ لا أرى لها أثراً
ولا ظلاً من أثر . إن صلاحى فى سلمى . وحياتى وعماتى لها ،
فلو أنى نلتها أو فزت بكلمة منها لكنت أتى الأتقياء ،
وخير الأصفياء .

وهنا تلعم أبورقية والدموع لا تزال تنهمر من عينيه وقال :
- إذا كان فى قرب سلمى صلاحك فلم لا تتزوجها ؟
فابتدره الوليد قائلاً : ألم تعلم بما كان من أيها أيتها المجنون ؟
ألم تعلم أنى أطردها كما تطرد غرائب الإبل عن المناهل ،
وأنها أبعد إلى من مناط الثريا وأنأى من آمال الحمقى ؟
- هون عليك أبا العباس فكل شىء ينال إذا صبرت له
حتى آمال الحمقى .

- وكيف ذلك يا رضيع « الجرنفش » ؟
- إنى سأفكر بعقلى وأدبر لك لقاءها .
- لقد يئس العقلاء من اجتذابها إلى فلم يبق إلا المجانين !
- إن الناس يتقون العقلاء لأنهم يعرفون طرق تفكيرهم
فيتحصنون منهم ، أما المجانين فلهم أسلوب من الحيل لا يهتدى

إليه العقلاء . سأذهب إليها غداً وستراها بعد غد .
 فضحك الوليد ضحك اليائس ، وأخذ يسخر من أبي رقية
 ويهزأ به ، وأبورقية مطرق لا ينبس . ثم طلب الوليد المصحف
 وشرع يقرأ حتى إذا انتصف الليل ذهب إلى فراشه .
 وفي الصباح خرج أبورقية من القصر ، ولما ابتعد عنه كثيراً
 وقرب من قصر سعيد بن خالد ، أخذ يهارش الصبيان ويغريهم
 بإيذائه ، حتى إذا وصل إلى القصر شرعوا يرمونه بالحجارة ،
 وقد كثر عددهم ، فطفق يصيح ويستغيث ، وقد شج رأسه ،
 فخرج العبيد فدادوا عنه الصبيان وأدخلوه القصر ، ولكنه استمر
 في عويله ، وأخذ يرفع الصوت بشم الصبيان والدعاء عليهم .
 فأطلت عليه سلمى مع بعض جواريتها وقالت :

— ماذا أصابك يا أبا رقية ؟

— كل ما أصابني بسبك يا سيدتي .

— بسببي ؟ وهل أنا التي أغرت بك هؤلاء الشياطين ؟

— نعم أنت . رأيت لك رؤيا بالأمس فأعجبنتني ، فجئت

لأبشرك بها ، فقابلني هؤلاء الأبالسة فشجوا رأسي . ألسنت

أنت السبب في كل هذا ؟ فضحكت سلمى ضحكة فاتنة

لو سمعها الوليد لباع بها ملك الشام والعراق ، ثم أدركتها

شفقة على الرجل . ورثاء لما أصابه ، وعطف بحسه

العاقل على المجانين ، فدعته إلى حجرتها وقالت في دلال
وعجب :

- حدثني بحديث هذه الرؤيا يا أبا رقية .
- إنها رؤيا جميلة جداً لم أخبر بها أحداً ، وأنا واثق من أنها
ستقع ، لأنني لم أر شيئاً في المنام إلا تحقق كما رأيت : رأيت
مرة ليزيد بن عبد الملك أن حبيته « حبابة » ستعود إليه ،
وقد كان يشس من لقاءها ، فعادت إليه بعد ثلاثة أيام . ورأيت
لمسلمة بن عبد الملك قبل سفره إلى العراق أنه سيقود جيشاً
لمحاربة يزيد بن المهلب ، وأنه سيقتله ، فلم يمض شهر حتى
تحققت الرؤيا . نعم يا سيدتي إن العقلاء يرون الأشياء في
النهار حينما تجيء . ونراها نحن في الليل قبل أن تجيء .
فأغرقت سلمى في الضحك وقالت :

- أسرع أبا رقية وخبرني بهذه الرؤيا .
- لا بد أن آخذ البشرى أولاً .
- لك عشرة دنانير .
- لا يا سيدتي . وماذا أصنع بالدنانير ؟ إنني أريد منك
شيئاً أعظم من هذا . بشرط أن تقسمي لي بجدك عثمان بن عفان
أن تعطيني ما أطلبه منك .
- أقسمت بعثمان فماذا تطلب ؟

— أطلب طبقاً من هريسة .

فأغرقت في الضحك . وأعجبها ما في الرجل من بلاهة
وظرف . وأشارت إلى الحوارى أن يغادرن الحجرة ، واتجهت
إليه قائلة :

— لك ما تطلب يا أبا رقية فاقصص رؤياك .

— رأيت يا سيدتى كأننى فى ميدان قصر الخلافة ، وإذا
بك أنت نفسك يا سيدتى تجرين فى ذعر ووهل ، ووراءك
أسد مفترس ما رأيت فى حياتى أشد منه شراسة وأنكر زئيراً ،
وكنت تصيحين وتستجيرين . فاجتمع الناس وملئوا جوانب
الميدان . فأعدت النظر إلى الأسد . فاذا هو ينقلب رجلاً أزرق
العينين أحمر الوجه . غزير شعر الحاجبين أصفر شعر اللحية كئها .
عظيم الشفتين . بخده الأيسر أثر ضربته سيف كاد يشوه وجهه .
فنظرت إليه سلمى فى ذهول وقالت :

— أنا أعرف هذا الرجل .

— أنا لا أعرفه يا مولاتى . ولكنى فى النوم سمعت الناس
يصيحون . ابن عنبسة . ولا أدرى من هو .

— نعم هو ابن عنبسة . يزيد بن عنبسة ، إنه خطبى
من أبى .

— هذا لم يكن فى منامى . ولا شأن لى بالرجل ولا بخطبته .

انقلب الأسد رجلا على الوصف الذي ذكرت كأنني أراه أمامي الساعة . وكان في يده خنجرهم أن يطعنك به ، فصحت وجاوت التخلص من يديه . وبينما أنت كذلك إذ أقبل رجل يشق صفوف الناس ، وسيفه في يده ، وعلى وجهه الشهامة والبطولة وغضب الكريم لعرضه وشرفه . فصاح الناس : الوليد . أمير المؤمنين . الخليفة . فرجعت البصر فإذا هو وولاي الوليد ابن يزيد . فسألت رجلا يجاني : أصبح الوليد خليفة ؟ فأجاب نعم أصبح خليفة أيها الأبله ، ألم تعلم أن هشاماً مات منذ سنوات . وأنه الآن خليفة المسلمين ؟ فسكت وترقبت فإذا الوليد يهجم بسيفه فيشطر الرجل الذي أراد طعنك بخنجره شطرين . ويأخذ بذراعك في رفق وحنان ، ثم يمشى بك حتى يبلغ دار الخلافة بين صياح الصائحين ، والدعاء لك ولزوجك أمير المؤمنين .

كانت سلمى ذاهلة واجمة ، كأنها تسبح في حلم آخر ، وكانت بفطرتها جمّة المطامع بعيدة الآمال طموحاً ، وكانت تبغض ابن عتبة لثقل فيه ودمامة . ولأنه جاوز سن الشباب . فلما تعرض لخطبتها طلبت من أبيها أن يسوّف الرجل ويمهله . لأن قلبها كان يهفو إلى الوليد على الرغم مما عرف عنه . وعلى الرغم من إباء هشام وتحريضه أباهما ألا يزوجها إياه . كانت

تحب الوليد وتخاف رعونته ، وكان مما يزهدا فيه ويخفف من ثورة حبا له سعى هشام الحثيث تلخعه من ولاية العهد ، وإطباق أكثر الناس على أنه لا يصلح للخلافة ، بعد أن أرخى لنفسه العنان . وإذا ضاعت الخلافة من الرجل لم يبق منه إلا شبح هزيل من بنى الإنسان لا جاه له ولا غناء فيه . ولكن الرؤيا التي قصها عليها أبورقية محت من نفسها كل شك ، وأحيجت خامد الآمال . فالتفت إليه وقالت :

– وبم تعبر هذه الرؤيا ؟

– إنها لا تحتاج إلى تعبير ، إنها كفلق الصبح .

– وهل أصبح حقاً في يوم من الأيام زوجة الخليفة ؟

– ذلك بعد أن آكل الهريسة . فضحكت سلمى طويلاً

ثم قالت :

– ولكني لا أحب الوليد . وقد خطبني من أبي فرد طلبه

في عنف وإباء ، فكيف أتزوجه ؟ لا يا أبا رقية إنك واهم ،

فلعلك رأيت في منامك فتاة أخرى تشبهني .

– لم أرك وحدى ، إن الناس الذين كانوا في ميدان الخلافة

رأوك معي . وقالوا : هذه سلمى بنت سعيد . على أنى أعرف

أن الوليد بك صب مفتون ، وأنه إنما يعبث ويلهوليني حبك

بعد أن أياسه أبوك من قربك ، فلو أنه ظفرك لرأى في حبك

كل ما يحجبه عن الله والمرح . ثم إني لمحت منذ أيام أن جارية « عاتكة » بنت العباس بن الوليد قد أكثرت التردد على قصر حبابة ، وأكثرت من الخلوة بالوليد ، وعلمت من الجوارى أن عاتكة مفتونة بحب الوليد ، وأنها تحاول أن تجتذب مودته بعد أن يثس منك . ولست أبالي أتزوج عاتكة أم تزوج غيرها ، ولكنى لا أحب عاتكة لأنى ائتمنتها مرة على حجر قذفى به الصبيان فضيعته .

ثارت الغيرة فى نفس سلمى ، وتيقظت فيها غريزة المرأة فقالت :
 - وماذا أعمل للوليد وقد رأيت أنه محجوب عنى وعن قصرى ؟
 ثم ماذا أصنع وقد أقسم أبى ألا يزوجنى إياه ؟
 - إنه يريد أن يطوىء نار غرامه برؤيتك والحديث إليك ،
 أما زواجه بك فقد كتب فى سجل القدر ، ولن تستطيع يمين أهلك أن تمحو ما كتبه القدر .

- وكيف أراه وعلى ألف عين من أهلى ؟
 - ذلك هين يسير ، إنه سيأتى إلى القصر غداً متنكراً فى هيئة رجل يبيع ثياباً ، ومعه حماره وفوقه بضاعته ، ولا تتريب عليك فى شراء ثياب من بائع ثياب . فصاحت فى خوف ممترج بالفرح :

- أنت أعقل مجنون رأيتته يا أبا رقية .

— وأنت أجن عاقلة رأيها . عمى صباحا . أرجو ألا ألتقى
بالصبيان في عودتي . ثم انفتل من حولها فكأنما ابتلعت الأرض .
وعاد أبو رقية إلى القصر فالتقى به الوليد وأمه فحدثهما بكل
ما حاك من حيلة وتديير ، ودهش الوليد ، واستبد به الفرح ،
وانكب على أبي رقية يقبله . وأرسل فاشترى أثواباً من جميع
الأنواع ، وما جاء الصباح حتى غير من زيه وهيئته على نحو
ما يرتدى باعة الملابس ، فلبس عمامة صفراء وسروالاً فضفاضاً
وصداراً من الصوف الخشن ، ولف حول رأسه شملة من الحرير
الأحمر ، وخرج من القصر بعد أن وضع الأثواب فوق حمار
هزيل ، حتى إذا بلغ قصر سعيد نادى بأعلى صوته :
أثواب وألوان . للعذارى الحسان . عندي من الحرير .
ما ليس له نظير ، حرير صنعاني . وحرير تنجيسي ، وخر فارسي .
ذهب بذهب ، وعجب من عجب . فسمعتة سلمى وأمرت إحدى
جواربها أن تدعوه . فحمل بعض بضاعته ودخل القصر ،
فقادته الجارية إلى حجرة سلمى ، فبهره حسناتها ، وكاد يفضحه
جمالها ، وأخذ يتلعم ويتمم ، وهم بأن يمد إليها يده ، فنظرت
إليه عابسة ، وأشارت إلى جارتها بالخروج ، فلما خرجت
رى بالأثواب . وانكب على يديها يلتمها لثماً وتقبيلاً . وجعل
يئن ويقول :

– ارحمى يا حبيبتى . أنت حياة روحى ، وريحانة
نفسى ، أنت الهواء الذى أتسم . والأمل الذى أناغى ،
والسعادة التى أرجو وإليها أصبو . نظرة واحدة تكفينى ، وبسمة
تقنعنى ، وكلمة تفتح أمامى باب الرجاء .

– قم أبا العباس فى مثل ما بك ، وحبى لك صدى
لخفقات قلبك ، ولكن أبى والخليفة حولان دون هذا الحب .

– إن الحب لا يعرف الحوائل ، إنه ينفذ إلى ما لا ينفذ
إليه الهواء ، ويخلق فوق ما لا يصل إليه جناح ، فإذا أحببتى
فلا الخليفة ولا أبوك ولا الدنيا كلها بمستطاعة أن تقف بيننا .

– أحبك . فوثب عايبها يقبل وجهها فى شغف وفتون .
فابتعدت عنه قليلاً ثم قالت :

– اهدأ يا حبيبتى فانى لست لك بزوجة ، وخير لنا أن
نصبر حتى يصل الله بين حبلينا ، ويقرب منا ما بعد .

– إنى سأكون خليفة ، وسأنعم بزواجك .

– هذا لا شك فيه .

– ولن تزوجى ابن عنبسة .

– لن أتزوج به .

– وكيف أضفر بقرباك قبل أن يتم زواجنا ؟

– تبع أثواباً كل أسبوع ، وتأتى إلينا بحمارك الناحل

الأعرج . ثم قامت كأنها تدعوه إلى الانصراف ، فوقف
يودعها طويلاً . فلما خرج وضع الأثواب على حماره ،
وهو يكاد يطير من الفرح ، وأخذ يضرب الحمار بعصاه
ويصيح :

أثواب وألوان ، للعدارى الحسان !

نار ورماد

كانت دولة بني أمية عربية التزعة . شديدة التعصب
لكل ما هو عربي ، تنظر إلى الأعاجم في تيه وتعاضم ، وتحول
بينهم وبين مناصب الدولة ومراتبها . ثم اشتط بعض
الأمويين وغلا في إحياء نزعات الجاهلية ، ونبش ما دفن من
أحقاد القبائل التي جهد الإسلام في إيماتها ، واجتثاث أصولها .
فكان الخلفاء يؤثرون بعض القبائل بالموودة والعطاء والتجاوز
عن عدوانهم . وكان كل وال من ولايتهم يختص قبيلته
بالبذل والمحابة . فمرة تكون المحابة لليمانية ، ومرة تكون للمصرية .
وكان الناس يشعرون بكل هذا فيطرقون واجمين ، ويسكتون
وجلين . حينما كانت الخلافة في عنفوانها ، والدولة
في شبابها ، والسيف مصلاً فوق الرؤوس ، والولاة كلهم من

طينة الحجاج بن يوسف الذي كان يقول : من قال برأسه هكذا ، قلنا له بالسيف هكذا ! فلما ضعفت الدولة بعد موت الوليد بن عبد الملك ، تطلعت رعوس من الفرس كانت مدفونة تحت أطباق الخوف ، ونطقت أفواه من بني العباس كان يسكتها الذعر والحذر . وامتد الزمان بدولة بني أمية فزاد ضعفها باستنامة رجالها إلى النعيم ، ففقدوا رجولتهم ، وتسلبوا من خصائص عربيتهم . فكان ضعفهم قوة لأعدائهم ، وتراخى حبلهم شدة وبأساً للخارجين عليهم . لهذا قوى أمر بني العباس بمعاونة الفرس في أواخر عهد هشام ، وتجمع الناس حول دعواتهم بخراسان . وتكونت في أكثر أقطار الدولة جماعات من أنصارهم ، كانوا جميعاً يعملون سراً . ويعدون العدة في الخفاء ، ويتتظرون الفرصة للانتفاض على الدولة وثل عرشها .

وكان بدمشق كثير من المحتطين في حبل العباسيين بين فرس وعرب ، وهؤلاء كانوا يبعثون بأخبار الخلافة وأسرارها إلى الزعماء بخراسان ، ويتلقون أوامرهم وإشاراتهم . وكانوا ينبثون بين الناس فيشيعون بينهم مساوي الخلافة ، وهفوات فتیان بني أمية . بأسلوب شيطاني عجيب لا يلصق بهم تهمة ، ولا يدع لسامعيهم شكاً في أنهم أمناء مخلصون للدولة ، حريصون على بلوغها ما ينبغي لها من عظمة ومجد . يبدأ الرجل

منهم فخوراً بمكانة الخلافة وفضل رجالها الأولين . وقوادها
 السالفين . وأنها رفعت راية الإسلام . ونشرت كلمة التوحيد
 في كل مكان ، ثم يقول في رنة حزن وبصوت تكاد تخنقه
 الغيرة ، وتقلبه الحمية بكاء : هدى الله خلفاءنا السداد ،
 وألمم فتيانهم التوفيق ! أكان يفعل هشام كذا لو كان عمر بن
 عبد العزيز حياً ؟ وهل كان يفعل الوليد كذا لو كان عبد الملك
 ابن مروان حياً ؟ ثم يزفر زفرة طويلة ويرفع عينيه إلى السماء
 داعياً للإسلام والمسلمين . هكذا كانت تعمل هذه الفئة
 النائرة . ومن أنخاليق هؤلاء وأكاذيبهم امتلأت كتب الأدب
 والتاريخ بكثير من مثالب الأمويين . وكان بين هذه الطائفة
 أشخاص اندسوا في قصور الأمويين ليكونوا عليهم عيوناً ،
 ولينقلوا أسرارهم إلى أعدائهم .

وفي إحدى ليالي شهر رجب سنة أربع وعشرين ومائة وصل
 من دمشق إلى الكوفة إسماعيل بن يسار رسولاً من الشام من قبل
 محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . فقتل بدار بكير بن ما هان
 وكان من كبار أنصار العباسيين . وأخبره بما قدم إلى الكوفة
 بسببه . فسئل له بكير لقاء سليمان بن كثير الحراني زعيم
 جماعتهم ومالك بن الهيثم . وانفقوا على زيارة يونس بن عاصم
 وعيسى وإدريس ابني معقل في السجن . وكان قد آتهمهم

يوسف بن عمر عامل هشام على خراسان بالدعاء إلى بني العباس .
 فلما ذهبوا إلى السجن قابلهم حارسه وكان رجلاً غليظاً مفرطاً
 في الطول ، متين البناء ، ينطق وجهه بالشراسة والشر . فتعمد
 ابن كثير أن يسقط من كفه ديناراً ، فأخذ يدور فوق
 الأرض . فانقض عليه الحارس يلتقطه . ثم رفعه إلى ابن
 كثير قائلاً :

— هذا دينار سقط منك يا رجل . فقال ابن كثير :
 — خذه جزاء أمانتك ، فانما اللقطة لمن وجدها . ثم تعمد
 إسقاط دينار ثان فانكب عليه الحارس وقال : وهذا دينار
 آخر . فأطبق عليه ابن كثير كف الحارس وقال :
 — هولاك أيضاً ، فقد أحسنت في الأولى والثانية . وهل
 جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ فبهت الحارس لهذه الأريحية ،
 ثم اتجه إليه ابن كثير سائلاً :

— هل بين ضيوفك في هذا السجن عيسى بن معقل ؟
 فاننا قوم من أهله جئنا لنراه ولنحدثه في أمور أولاده وضياعه .
 — إن ابن عمر يحظر أن يلقاه أحد . ولكن أوامر الرؤساء
 دائماً تصدر لتنقض . فلا تريب عليكم من أن تروه على شرط
 ألا تطيلوا المكوث . وعلى شرط ألا تتحدثوا في أمر بني العباس .
 — إن لنا من الشغل بأنفسنا ما يذودنا عن الحديث في

شئون غيرنا . وأشار إليهم الحارس بالدخول فوصلوا إلى حجرة المسجونين ، وكانت واسعة فسيحة منعزلة في ناحية من البناء ، وما كاد يراهم من بها حتى أسرعوا إليهم فرحين معانقين . وأخذوا يطرؤهم بالأسئلة عن محمد بن علي بن عبد الله وعن ابنه وخليفته إبراهيم الإمام ، ثم عن الدعوة بخراسان ، وعن قوتها ونشاطها وانتشارها . وكان يخدمهم بالسجن شاب قصير في نحو الرابعة والعشرين ، أسمر اللون نقي البشرة أحور العينين عريض الجبهة ، كانوا يدعونه أبا مسلم ، وهو أبو مسلم الخراساني الذي كانت تدخر له الأيام عظمة ومجداً . وهو الذي أفام بسيفه ورأيه بعد ثمانى سنوات لبني العباس دولة شامخة الذرا رابضة البديان .

جلس الجماعة بعد الترحمة وتبادل الأشواق ، فقال ابن كثير في صوت خافت :

— هذا إسماعيل بن يسار شاعر الطائفة العباسية ومذيع فضلها وناشر مناقبها ، قدم بالأمس من الحميمة بعد أن قابل ابن عم رسول الله وزوده بما يجب علينا عمله لإشعال الثورة على الأمويين وبثها في كل مكان ، وهو يستطيع أن يحدثنا بكثير من أخبار فتيان بني أمية وعبثهم ، وخطط الناس عليهم ، وقد يهدينا تبادل الرأي وتجادب التفكير إلى ما يحسم هذا الأمر .

والى أن نرسم طريقاً لا حياً نمضى فيه إلى الغاية موقنين . لقد بلغ السيل الزبي ، وجاوزت الشدة طاقة الاحتمال ، ولا بد من ضربة سيف قاصمة مصممة تفرق بين الحق والباطل ، وتعيد الخلافة إلى أهلها . فصاح أبو مسلم والدموع تتناثر من عينيه :

– نعم لا بد من ضربة سيف ، ولا بد أن يمحي كل أثر لأبناء عبد شمس .

– اهدأ يا بني فإن رأى لا تنضجه نيران الغضب .

– إن الغضب هو الذى يصهر العزائم ويشحذ الهمم ، وما حاجتى إلى رأى هزيل تزيده الشكوك ضعفاً وهزالاً ؟ فالتفت ابن كثير إلى ابن معقل فى دهشة وقال :

– من هذا الشاب ؟

– هذا أبو مسلم أشدنا حماسة إلى الدعوة ، وهو أرفه من سيف ، وأنفذ إلى مطالبه من سهم ، إن نار الثورة تسرى فى شرايين جسمه ، وإننا نسميه صخرة الأرض وداهية الدواهي .

– هذا كله حسن ، ولكنى أحب أن يضم إلى فورة شبابه حكمة الشيوخ ودهاءهم .

– إن عنده من ذلك الشيء الكثير فلا يلفتك أمره عما نحن فيه .

– أظن أن الكلام فى جبروت الأمويين وحرمانهم إيانا

مناصب الدولة قد أصبح كلاماً مكرراً . وحديثاً معاداً .
فقال إسماعيل بن يسار :

– إنهم يتعالون علينا ويشمخون بأنوفهم حتى كأن الله
خلقنا من طين وخلقهم من مسك وكافور . فقال عيسى
ابن معقل :

– إن دين الله لا يفرق بين عربي وأعجمي ، ولا بين
مصري وعماني ، ولكن هؤلاء القوم يكيلون للناس بمكيا لين ،
ويتزلونهم منزلين ، وينظرون لهؤلاء بعين ولأولئك بعين ، ثم
يزعمون أنهم نصراء القرآن وحماة الإسلام . وهنا وثب أبو مسلم
واقفاً وقال :

– لو زرت خراسان اليوم يا صاحبي لرأيت الأعاجيب .
فقال ابن يسار :

– إن ما نلقاه بالشام أعجب وأغرب يا فتي . أنشدت هشاماً
مرة قصيدة فدفعني الاعتزاز بقوى إلى أن أفخر بالفرس وأشيد
بمجدهم القديم . فما كان منه إلا أن غضب حتى نفرت
أوداجه . وصاح في جبرية وزهو : أعلى تفخر بقومك أيها
الأحمق ؟ وإياي تنشد قصيدة تمدح فيها نفسك وأعلاج قومك ؟
ثم أمر عبيده أن يغطوني في الماء ، فخذفوني في بركة حتى كدت

أغرق ، ثم أمر فنفيت إلى الحجاز . فصاح عيسى بن معقل
 ماذا كانت قصيدتك لله أبوك ؟
 - قلت فيها يا سيدي :

إني وجدك ما عودي بذي خور
 عند الحفاظ ولا حوضي ممدوم
 أصلي كريم ومجدي لا يقاس به
 إلى لسان كحد السيف مسموم
 أحمى به مجد أقوام ذوى حسب
 من كل قرم بتاج الملك مغموم
 ججاجع سادة بلج مرازية
 جرد عتاق مساميح مطاعيم
 من مثل كسرى وسابور الجنود معاً

والهرمزان لفخر أو لتعظيم ؟
 فصاح القوم لا فض فوك يا ابن يسار ، بمثلك تنهض الدعوة
 وتتأجج الثورة ، فلما عادوا إلى الحديث قال إسماعيل : أما العبث
 بين فتیان بنی أمیة فقد بلغ الغایة ، وقد جهدنا جهدنا
 فی إذاعة مثالبهم ونشر أخبارهم ، ووصمهم بكثير من النقائص
 بالحق وبالباطل ، حتى أصبحوا حديث كل غاد ورائح ،
 وأخذ الناس يشعرون بوجوب زوال دولتهم وانتهاء أمرهم .

والوليد بن يزيد سادر في غلوائه ، لا يقف في طريقه شيء ،
 وإذا نصحه ناصح ، أو زجره زاجر زاد عناداً وتحدياً ، كأنه
 يتعجل نهاية أيام بني أمية . وهو ولي العهد ، وإذا ولي الخلافة
 على تلك الحال قوى ثورتنا ، ويمكن لدعوتنا ، وقدم الخلافة
 هدية سائغة هنيئة لأمير المؤمنين ابن العباس . لكل هذا تعمل
 جماعتنا بدمشق على إحباط كل مسعاة هشام في خلعه من ولاية
 العهد ، ونقلها إلى ابنه مسلمة . ولأجل هذا نحث دائماً رستم
 غلامه على أن يوحى إليه بكل شنعاء . وعندكم بخراسان جماعة
 منظمة تبعث بالجواري الحسان إلى قصور أمراء بني أمية لإغرائهم
 بالتبذل . وليكن جاسوسات عليهم ، ينقلن أخبارهم ، ويفشين
 أسرارهم . وقد نجحن كثيراً وأصبحن المتحكيمات في الدولة ،
 المسيطرات على خلفائها وقوادها . ولو طال عمر « حباة » جارية
 يزيد بن عبد الملك قليلاً ، لانتهى حكم بني عبد شمس منذ
 حين ، ولكننا اليوم ناعمين هائنين في ظل خلافة بني العباس .
 فصاح أبو مسلم .

— لقد طال حكم هشام حتى كاد يدب اليأس إلى نفوس
 بعض ضعاف الغزائم من شيعتنا . فقال ابن يسار:
 — لقد طال حكمه حقاً ، وهو قاس صارم يريد أن يعيد
 الأموية إلى ما كانت عليه أيام معاوية ومروان وعبد الملك .

شحيح بالمال جماع له ، كأنه يريد أن يصون كل دينار ودرهم لحماية الخلافة والذود عنها إذا خرج عليها خارج . فلم يعط أحداً من بني مروان عطاء إلا إذا خرج للغزو بنفسه أو أخرج من ينوب عنه . ورد عليه يوماً محمد بن زيد للعطاء فقال له : « مالك عندي شيء ، وإياك أن يغرك أحد فيقول لك : إن أمير المؤمنين لم يعرفك . فوالله لقد عرفتك ، أنت محمد بن زيد ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب . فلا تقيمن وتنفق ما معك ، فليس لك عندي صلة » . فعاد الرجل إلى المدينة بختي حنين . وبعث إليه أحد عماله بسلة خوخ فكتب إليه : قد أعجب الخوخ أمير المؤمنين . فزدنا منه واستوثق من الوعاء حتى لا يسرق في الطريق . وأخبرني غلامه فيروز أن بعض المشرفين على ضياعه بعث إليه خادماً بطائرين ظريفيين ، فدخل عليه وهو جالس في سرير في عرصة الدار . فقال للخادم : أرسل الطائرين لأنظر إليهما ، فأرسلهما ، ولما أراد الخادم الانصراف طلب جائزته ، فقال له هشام : ويحك وما جائزة طائرين ؟ قال : أي شيء تجود به . قال : خذ أحدهما . فعدا في الدار خلفهما ، فقال له هشام : ماذا تصنع ؟ قال : أختار خيرهما . قال : أتختار خيرهما وتدع لي شرهما ؟ لا والله لا نلت منهما ريشة ، لعن الله ناقة حملتك إلينا ! وهذا هو الرجل الذي تخضع الدنيا لأمره ،

وتجبي إليه ثمراتها . ولقد كان مرة في أحد بساينته ، والزراع يجمعون الزيتون ، فرآهم يهزون الأشجار ليتناثر زيتونها ، فصاح : القطوه لقطاً ، ولا تنفضوه نفضاً فتنفقاً عيونهم ، وتنكسر غصونه . هذا هو هشام : بخل فكرهه الناس ، وقسا فحقد عليه الناس ، وطال عهده فضجر منه الناس . فقال ابن كثير :

— إنه الصخرة الصماء التي تتحطم حولها آمالنا ، والتي يجب أن تزول من الطريق . فقال ابن يسار :

— إنه مصاب بذبحة الصدر ، ولولا دواء مزجه له طبيبه « فرات بن شحناثا » لقضى عليه منذ سنوات . واستراحت الدنيا منه ومن صلفه وشحه . فزفر عيسى بن معقل طويلاً ثم قال : ألا يستطيع فتى أحمدي أن يروى خنجره بدمه ؟ . فأجاب ابن كثير :

— إن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا . فقد يكفي أن نوعز إلى خادمه فيروز أن يريق ما في زجاجة الدواء . ويضع مكانه ماء بلونه . فاذا أدركته النوبة وأسعف بالدواء لم يغنه الماء شيئاً . فصاح جميعهم هذا رأى صائب . مر فيروز أن يفعل هذا يا ابن يسار . وهنا عاد ابن كثير إلى الحديث فقال : لنوجز الآن ما استقر عليه رأينا ليعمل كل منا على إنفاذه وليبلغه ابن يسار إلى الإمام محمد بن علي . فقد رأينا أولاً أن نبت بين

الناس بغض بني أمية والسخط على حكمهم ، وأن نبتدع الأقاويص والأخبار التي تشوه سيرتهم وتثير الضغينة عليهم ، ثم أن نغري الوليد بالاستمرار فيما هو آخذ فيه بكل ما في مكتنا من وسائل . وأن ندلل له السبيل إلى الخلافة فإنه لن يمكث بها أياماً حتى تدول . ثم أن نقلل من مدة هشام ، وأن نقطع الخيط الذي يوصله بالحياة . وعلينا أن نفكر في كل لحظة في اليوم الذي تنجلي فيه هذه الغمة حتى كأنه الغد ، وأن نسخر من العقبات التي يضعها أجراء بني أمية في طريقنا . هلم الآن فقد طاك بنا الجلوس .

ويخرج الزوار فيمرون بالحارس لدى الباب ، فيتجه إلى ابن كثير وهو يقول في سخرية ودهاء :

— الآن لا تسقط دنانيرك أيها الشيخ !

— كان بثوبي فتق فأصلحته .

— أختى أنك تعمل أنت ومن معك لفتق لا يرتق .

— قد يكون الهدم إصلاحاً في كثير من الأحيان .

— إلا أن تهدم داراً على ساكنيها . احذر يا شيخ فإنني أجد

في أعطافك ريح الثورة . والثورة نار مجنونة ، تأكل أول ما تأكل

مشعلها ، اذهبوا فإنني لا أرى في وجوهكم خيراً .

فسار الثوار حتى بلغوا دار بكير بن ماهان ، وأقام معهم

إسماعيل بن يسار أياماً ثم عاد إلى دمشق لينهض العزائم
في ويثير الهمم .

موت وحياة

مرت شهور والوليد بن يزيد لا يزال يزور قصر سلمى في كل
أسبوع لبيع الثياب ، حتى بليت الثياب ومل الحمار . ومرت
شهور وهشام ما زال يتحرق غيظاً على الوليد وعلى أنصاره الذين
تحذوه واختطفوا ابنه مسلمة . وجعلوا رده ثمناً لفك من اعتقلهم
من أصحاب الوليد . ومرت شهور ويزيد بن عنيسة لا يزال يلح
على سعيد بن خالد في أن يزوجه سلمى ، وهو يرجئه ويرأوغه ،
ويرده خائباً محسوراً . وفي ذات يوم أعلمته « صدوق » إحدى
جوارى الوليد . وكانت جاسوسة له عليه . أن الوليد يزور سلمى
في كل أسبوع في هيئة بائع ثياب ، فيتبادلان الحب والصبابة ،
فزاد حقه على الوليد ، وأخذ يدبر له الغوائل .

وساقته قدماه يوماً إلى دار الخلافة ، فلما بلغ قاعة الحكم
رأى « يعقوب » حاجب هشام لدى الباب ، فسأله عن الخليفة
فقال :

— إنه بالقاعة مع كثير من رجال بني أمية ، وهم يتحدثون

فى أمر ذى بال ، وقد حجب الباب ، وأرسل رسولا إلى دارك .
 — نبتة بقدمى يا يعقوب . فإنى أود أن أحدثه أيضاً بأمر
 ذى بال . ودخل يعقوب وعاد سريعاً بالإذن ، فلما مثل ابن
 عنبسة أمام هشام رآه مطرقاً ، وقد أربد وجهه ، وانتفض عرق
 بصدغه الأيسر كان ينتفض كلما غضب ، ورأى عنده يزيد
 ابن الوليد والزهرى ومحمد بن هشام المخزومى وأخاه إبراهيم وبنى
 القعتاع العيسى ، ثم العباس بن الوليد ويزيد بن خالد .
 سلم ابن عنبسة فرقع هشام رأسه متاقلاً وقال : وعليك السلام
 يا ابن عنبسة ! هلم إلينا فإنا بصدد أمر خطير سيكون له ما بعده .
 ونرجو أن نخرج منه بعد أن نكون قد نصحننا لله ورسوله ولصالح
 المؤمنين . هذا ابن أخى الوليد قد شرد على الله شراد البعير ،
 وجالس قرناء السوء ، وركب رأسه جامحاً . ثم هولا يزيد
 النصيح إلا إسرافاً فى العناد ، ولقد عاهدت أخى يزيد
 ابن عبد الملك وحلفت له أوثق الأيمان أن تكون الخليفة له
 من بعدى ، ولم أكن حين أقسمت أعلم أنى أقسمت على أن
 أترك زمام الخلافة وهى معقد آمال المسلمين ، ومعقل
 أمنهم ، فى يدي مثله ، ولكنى أقسمت حين أقسمت وأنا
 أرى غلاماً أزهر الوجه ، نبيل السمات ، توحى مخايله بصدق
 الأمل فيه ، وتنطق ملامحه بالثقة به ، ورب سم كامن فى الزهر

النضير ! وموت راكد في الماء النмир ! وأنا الآن يا بني مروان بين
 خلتين ؛ إما أن أترك الأمة بعد موتي تنساق إلى الدمار بولاية
 الوليد وهنا النازلة الفادحة ، والقاصمة القارعة ، وتمزيق أوصال
 الدولة ، وفناء بني أمية بالموت أو بالذل والهوان . وإما أن أحمي
 ما ورائي ، وأتخذ الأهبة للقاء ربي ، وأصون تراث آبائي ،
 فأخلع الوليد من ولاية العهد ، وأختار للمسلمين رجلا يحمي
 ذمارهم ، وللخلافة من يبعث فيها العظمة والقوة والشباب .
 فقال يزيد بن الوليد : لا يصلح لها إلا ابنك مسلمة .

— دعك من هذا الآن يا ابن العم ، فلن يحسن في هذا
 الأمر إلا أن ننسى أنفسنا وأبنائنا ، ووالذي نفس هشام بيده
 لو علمت أن صلاح هذا الأمر في اعتزالي لاعتزلت ، ولو
 علمت أن غير مسلمة أقوى بالخلافة كاهلا ، وأضبط يدا
 لقدمته عليه . فأسرع إبراهيم المخزومي قائلا :

— لن تصلح الخلافة إلا بك يا أمير المؤمنين . وإذا كان
 لنا في الله رجاء فهو أن تبقى فيك ثم في ابنك مسلمة من بعدك .
 فانه بضعة منك ، فيه ما فيك من دين وسياسة وحزم . فصاح
 أبناء التمتع : لن نرضى بمسلمة بديلا ، أما الأيمان التي
 عقدتها لأخيك لتولية ابنه من بعدك فان الله يحلك منها . وهنا
 قال الزهري في صوت خافت :

- يرى بعض المفسرين في قوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » أن المعنى لا تجعلوا القسم بالله حائلاً بينكم وبين البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فإذا حلف رجل أن يأتي منكراً وجب عليه أن ينقض يمينه ويكفر عنها . فقال ابن عنبسة : هذا تفسير عظيم . وأسرع هشام فقال :

- إذا أنا في حل من هذه الأيمان ولم يبق إلا أن نكتب ميثاقاً ندون فيه مساوى الوليد ومثالبه ، وأنه لا يصلح للخلافة ، وثبت فيه محامد مسلمة ومناقبه ، وأنه خير من يقوم بها من بنى أمية . وأن أمير المؤمنين لكل هذا خلع الوليد من ولاية العهد ونقلها إلى مسلمة . أين سالم أبو العلاء ؟ فتحرك العباس ابن الوليد في مجلسه قليلاً ، وهويكبت غيظاً دفيناً ، وقال :

- قبل أن تدعوكاتبك يا أمير المؤمنين أرى أن نبحث في الأمر حتى نصل فيه إلى غاية تثلج الصدر ، وتبدد الشكوك . فأجاب هشام غاضباً :

- ألم نمحص الأمر بحثاً ودراية ؟ ألم يصبح عبث الوليد حديث الناس ومسلاتهم في أسماهم ؟ أليس ابني مسلمة في دينه وعقله خيراً ألف مرة من الوليد ؟ فأجاب العباس :

- إن الأمر يا أمير المؤمنين أعظم خطراً من أن نتقنع فيه

بالحياء ، وأجل شأناً من أن نجتذب فيه رضاك ، أو نجتنب فيه منطك . أنا شك غير مستيقن بكل ما قلم ، فلا الوليد قد وصل إلى تلك الهاوية التي زعمتم ، ولا مسلمة قد بلغ تلك القمة من الصيانة والتقوى ، ولا تلك الأيمان التي وكدها لأنخيك أصبحت لغواً فصرت في حل من نقضها . فبهت من بالمجلس ، واصفر وجه هشام ، واحمرت عيناه من الغيظ ، وضرب عرق صدغه ، وانتفض وصاح حتى ملأ صوته القاعة :

– هكذا أنتم دائماً يا أولاد الوليد بن عبد الملك ! تحقدون على وعلى أولادى ، ولقد كاد يسلبكم الضغن عقولكم حين ما ازور عنكم وجه الخلافة بعد أن تجاذبتم أطرافها ، فأصبحتم تعدون علينا الأيام ، وتتمنون أن تقلص عنا ظلالها . إنكم أعظم كيداً للخلافة ، وأكثر عدواناً عليها ، من العباسيين والعلويين والترك والديلم ، ووالله لولا خشية منه ، ولولا أن يقول الناس حارب هشام أهل بيته ، لبدأت بكم قبل أن أبدأ بمقاتلة المتألبين على الدولة من الخوارج . أما قولك إنك في شك من الأمر فباطل يراد به إزهاق الحق ، وإطلاق شيطان الفتنة من عقاله ، ليعيب معكم في الدولة كما تعيثون . فوقف يزيد بن خالد وقف المناضل المتحدى وقال :

– مهلا أمير المؤمنين ، فنقل الخلافة من رجل إلى رجل أمر جليل ، لا يكفي فيه أن يكون أمير المؤمنين ساخطاً على هذا أو راضياً عن ذلك . لقد قال العباس حقاً ، وإن رأى من تجمعهم اليوم من أنصارك لا يكفي لاقناع الأمة وحملها على نبذ العهد الذي عاهدتك عليه . والأمر شديد الخطر على أمير المؤمنين قبل أن يكون شديد الخطر على الوليد . لقد بايعك الناس في عهد واحد وفي ميثاق واحد على أمرين لا على أمر واحد ، بايعوك بالخلافة . وبايعوك على أن تكون الخلافة من بعدك للوليد بن يزيد . فإذا نقضت بعض العهد يا أمير المؤمنين انتقض كله ، وتحلل الناس من البيعة لك ، وصح لكل خارج عليك أو ضجر من حكمك أن يصيح في الناس : أيها المسلمون . إن هشاماً نقض العهد الذي بينه وبينكم ، فليس له في رقابكم بيعة . أتريد أن يحصل هذا يا أمير المؤمنين ؟ أتريد أن توظف راقدة الفتنة وتعيد أيام صفين حين احتكم المسلمون إلى سيوفهم في شأن الخلافة ؟ إن هؤلاء يا أمير المؤمنين الذين يزينون لك ما تحب ، ويقربون لك الأقصى مما تريد ، أعداء في ثياب أصدقاء ، أو مخبولون في مسوك عقلاء . ثم من هم أبناء الوليد الذين يكيّدون لك ويدبرون سوء لدولتك ؟ أتستطيع أن تشير إلى واحد منهم عن بينة و يقين ؟ دعك من كل هذا

يا أمير المؤمنين ، واترك الأمر كما هو ، فلسنا في حاجة إلى فتن جديدة نشعلها بين الناس ، فإن الفتن تنبث في كل مكان ، وإن تحت الرماد للهبأ وضراماً . وما كاد يسكت حتى ابتدره ابن عنبسة قائلاً :

— ما هذا التهويل يا ابن خالد ؟ أنا أعرف صلتك بالوليد ومحبتك له وتهاديكما الجوارى الحسان ، وأعرف أنك تطمع أنت والعباس في أن يكون لكما شأن في خلافته بعد أن انبت بكما الحبل في هذه الدولة . ثم ما أخلوقة البيعة هذه التي إذا انتقض بعضها انتقض كلها ؟ وهنا تتم الإمام الزهري قائلاً :

— إن ما قاله ابن خالد حق ، لأن الجزأين متلازمان . وقد تفهم البيعة على وجه آخر ، هو أن الناس بايعوا هشاماً بالخلافة على شريطة أن يتركها بعده للوليد . فاذا أقصى الوليد عن ولاية العهد فقد نقض شرط ما بايعوه عليه ، وبهذا تسقط بيعته من أعناقهم . فوجم هشام ، وجف ريقه ، وظهرت الحيرة على علي وجوه أنصاره . وهنا قال العباس :

— قلت إن عندي شكاً ، ولم أكن في هذا القول كاذباً ولا متجنباً ، إن أكثر ما يشاع عن الوليد إفك ومين ، وهي أكاذيب ولع الناس بها ، واختلقها قوم لهم في اختلاقها مآرب ومغرم . فعجل الزهري وقال :

— لا يا ابن الوليد لقد رأيتك بعيني وحوله القيان ينقرن
الدقوف ، والمغنون يضربون على البرابط والطنابير .
— هذا يا مولانا أمر لا يخلو منه قصر من قصور بني أمية .
ثم التفت إلى هشام قائلاً : ثم إنى لا أعرف من رجال بني أمية
من يبغض الوليد إلا القليل ممن يحيطون بهذا القصر ، ويتزلفون
إلى صاحبه . ولو أنك يا أمير المؤمنين خلعت الوليد لأثرت فتنة
شعواء في حياتك ، وفرقت كلمة المسلمين بعد مماتك . فإني أرى
بعين الغيب — وأطال الله بقاء أمير المؤمنين — أن الناس سيختلفون
بعد موتك ، وسوف يعد كثير منهم نقضك الولاية للوليد أمراً
باطلاً . فيصرفون إليه . ويبقى فريق مع مسلمة ، ويتقاتل
الفريقان . ويأتي العباسيون فيضربون هذا بذاك ويختطفون
الخلافة من أيديهم . يا أمير المؤمنين : دع الأمر كما هو ، ودع
كلاب الفتنة نائمة ، فلإني أخشى أن نكون كالتى نقضت غزها من
بعد قوة أنكاثا . والله يعلم أنى لك ناصح وعلى خير المسلمين أمين .
فانتفض هشام واقفاً وقال : اذهبوا عنى الآن ، فإن عقلى
يكاد يطير من رأسى ، اذهبوا فللخلافة رب يحميها . وأين
هشام إذا أراد أمراً وأراد الله غيره ؟ فانصرف القوم في وجل
ورهة ، وبقى ابن عنبسة متخلفاً ، فلما خلت القاعة التفت
إليه هشام وقال في ألم ممض .

– طار العصفور من أيدينا ، وبقى على دوحته ينظر إلينا
مغرداً ساخراً . لقد خاب الأمل في بني أمية .

– دعه يغرد قليلاً يا أمير المؤمنين ، فاننا سنعد له بعد قليل
فخاً وسكيناً .

– كيف يا ابن عنبسة ؟

– إذا لم نستطع خلعه من ولاية العهد استطعنا خلعه من
الحياة .

– معاذ الله أن أمد يدي إلى الوليد بسوء ، لا تفكر في شيء
من هذا يا ابن عنبسة . أتريد أن تجعلني أحدوثة في الناس وأن
يقول القالة إن هشاماً قتل ابن أخيه ؟

– لن يكون لك يا أمير المؤمنين في هذا الأمر ورد ولا
صدر ، وإنما

هو الموت يعتام الكرام ويصطفى

عقيلة مال الفاحش المتشدد

– لا . لا . يا يزيد ، وإياك أن تقتل نفساً حرم الله

إلا بالحق .

– لقد كنت أفكر يا أمير المؤمنين في التخلص من الوليد ،
لا لأنه يزاحم مسلمة في الخلافة فحسب ، بل لأنه يزاحمني في
سلمى بنت سعيد .

- لقد حلت بينه وبين هذه الأمنية ، وأمرت سعيداً
ألا يرضى به زوجاً لبيته .
- من يدري يا أمير المؤمنين ؟ فإن الأحوال قد تحول ،
وقد يصبح سعيد له راجياً بعد أن كان آيباً .
- ماذا تريد أن تقول لا أم لك ؟
- أطال الله حياة أمير المؤمنين ومد في عمره .
- سمعت هذه الدعوات من آلاف الآلاف من الناس ،
ولكن الدعاء لا يمنع القدر .
- إن لكل نفس أجلاً يا أمير المؤمنين لا تستقدم عنه ساعة
ولا تستأخر .

- دعك من ذكر الموت . ونخص في حديث آخر .
- كانت لي جارية اسمها « صدوف » يا أمير المؤمنين اشتراها
منى الوليد من خمس سنوات ، وهي لا تزال تهفو إلى ، وتحن إلى
ذكرى ، وتنقل لي أخباره . ولو أنى أمرتها أن تثب في النار ،
أو تنام في خيس الأسد لفعلت مطبعة راضية ، وقد كنت أريد
إغراءها بقتل الوليد قبل أن يستنكره أمير المؤمنين وينهى عنه ،
وأمير المؤمنين واجب الطاعة ، وقد كان الأمر جدهين ، فإن
مروان بن الحكم الذي كانت تنتفض منه قلوب الأبطال رعباً ،
لم يقتله إلا امرأة هي زوجته أم خالد ، فقد وضعت على وجهه

وسادة وهو نائم ، فلم ترفعها عنه حتى مات . فأغمض هشام
عينيه وغادر الحجرة غاضباً وهو يقول : احذر يا ابن عنبسة
أن تدنس يديك بالدماء ! إني أنهارك إني أنهارك !

وخرج ابن عنبسة من عند الخليفة بعد أن خدعه وأظهر له
العدول عن الفتك بالوليد . والتقى بعد أيام بصدوف في داره ،
لأنها كانت تتغفل أهلها وتختلس زيارته بين الحين والحين ،
فأحسن لقاءها ، وأكثر من الحفاوة بها . وطوقها بهالة من غزله
وتشبيهه ، وبثها كثيراً من أشواقه فأجج في قلبها ناراً كاد يطفئها
اليأس . وفتح باباً من الرجاء أغلقه القنوط . فالت عليه مذهولة
حيرى بعد أن أثار فيها حباً قديماً كان يساورها في اليقظة والمنام ،
وهاج في نفسها وحدا كامناً لم تفل من حدته الأيام ، ثم أخذت
تتمم ورأسها على كتفه قائلة :

— حبيبي . ماذا جدّ لك ؟ لقد كنت ألك قبل اليوم
فلا أجد فيك تلك النشوة . ولا أحس لقلبك بهذا الخفقان الذي
كأنه صدى وجيب قلبي .

— كنت أكظمه يا صدوف . وكنت أربأ بمروعتي أن أمد
يدي إلى طعام غيري . ولكن لكل شيء طاقة . وقد عجزت
طاقتي ، وناء صبري بأن يحتمل أكثر مما احتملت ، ولا بد
للماء في مرجل أن يفور ، وللسيل المحتبس أن يحترق ما أمامه من

جنادل . لقد بعثك يا حبيبة قلبي في ساعة جنون ، ولم أعرف الهدوء منذ ذلك الحين ، ولكني كنت أخاف أن أظهرك على ما في نفسي فأجدد لك شوقاً وحزناً أنت عنهما في غناء . ثم انكب عليها يقبلها في ظمأ ونهم . ويهمس في أذنها بما يلقى من الصباية والهجر . فأحاطت وجهه يديها الرخصتين وهي تقول : ليتني أعود إليك يا حبيبي . هل من سبيل ؟ فأطرق كالمفكر وقال :

- ليس من سبيل إلا أن يبيعك لي الوليد .
 - إنه كثير النفور مني ، متجنن عسوف ، ولكنه شديد البغض لك ، وهو يؤثر أن يبيعني لمجوسى ولا يبيعني لك ، ولو وازنتني بالذهب .

- إذا لم يبق من سبيل .
 - إننى لا أستطيع الحياة بعيدة عنك يا حبيبي .
 - ويل للوليد . إنه سد منيع بين قلبين .
 - سد من فولاذ .
 - أنستطيع أن نحطم هذا السد ؟
 - كيف يا حبيبي ؟
 - إن الحديد بالحديد يفلح ، بهذا الخنجر . تم قذف بالخنجر فسقط في حجرها ، فقامت مذعورة وقد تفتحت

عينها ، وارتعشت يداها ، وأدركها ما يدرك النساء ساعة الوهل من الدهول وارتجاف العصب . ثم همست والكلمات تتعثر بلسانها :

— تريد أنه يقتل ؟

— نعم يقتل ، لأن الحب لا يقف في طريقه شيء .

— لا يا حبيبي ، دعني من القتل وذكر الدماء ، ونخذ في وسيلة أخرى .

— ليس أمامي شيء غير القتل ، ولو واتني الفرص كما تواتيك ما توانيت لحظة عن قتله .

— كما تواتيني ؟ أتريد أني أقتله أنا ؟

— ولم لا ؟

— لا ، إنني أؤثر أن يقتلني الحب على أن أمد يدي لقتل رجل أعيش تحت سقف داره .

— تعيشين تحت سقف داره ذليلة منبوذة . تعيشين تحت سقف داره وتركينه بنام ملء عينيه هانئاً سعيداً . وحبيبك يتقلب دنفاً حزيناً على فراش من سهاد . تعيشين تحت سقف داره وتخرجين من قتل رجل يقتل نفسين في وقت معاً . إنني لن أعيش طويلاً إذا ظلت هذه الحال ، ولن تمر أيام حتى تذرفي الدموع على شهيد قتلته حبيبته ، لأنها لم تقتل قاتله .

— إن القتل أكبر الجرائم إثماً عند الله والناس .

– ألا يقتل بعض الناس بعضاً في الحرب فرحين
متفاخرين ؟

– ذلك في ميدان الحرب يا حبيبي .

– إن الوليد يحاربني ومحاربك بسلاح مسموم ، فيجب
أن ندفع عن أنفسنا . وأن نقتل قاتلنا .

– ولكني لا أقتل أحداً .

– إذا لم تقتليه فخير لي أن أقتل نفسي ، ثم وثب نحو
الخنجر فدفعته عنه مذعورة وصاحت : لا تفعل يا حبيبي ،
وقل ما شئت فإنني لك سمع وطاعة . فارتمى على ساداته كالمجهود
ثم قال :

– إن الأمر أهون ما يكون ، إن الوليد ينام وحده ، فإذا
هدأت الأصوات ، ونامت العيون ، ولم يبق من الليل إلا أقله .
تسللت إلى حجرتة كأنك الطيف الطارق . أو الظل الساري ،
فأغمدت هذا الخنجر في صدره وهو نائم ، دون أن تسمع لك
نأمة . أو تحس حركة ، ثم عدت فغسلت يديك . ونمت
مطمئنة هادئة . فاذا جاء الصبح وعلم الأمر . سهل أن يتهم
بقنله أحد خدمه . وبينهم رستم الثارسي الذي هو جاسوس
عليه من خراسان . ثم ناولوا الخنجر فخبأته تحت ثيابها وخرجت
من لدنه مضطربة ذاهلة كأن بها مساً من جنون .

ولما بلغت القصر لمحها ابن رقية ، وقرأ بعينه البلاء ما على
وجهها من خوف وحذر ، ورأى في اضطراب مشيتها ، وفي
حديثها الداهل المتعثر ما يريب ، لأن المسكينة على ما بذلت
من جهد ، لم تستطع أن تكبت ما يجيش في صدرها من أمواج
الديسة . لمحها أبو رقية فأخذ يغالط نفسه ، ويتهم عينيه .
ويلوم عقله المختبل على إساءة الظن بفتاة قد يكون عصف بها
مطل حبيب . أو فراق خليل . ثم إنه يعرف بصورة مبهمة أن
الوليد ينأى عنها بحبه ، ويخص بغرامه سعاد الكوفية ، فلعل
ثورة من الغيرة طافت بها في هذه اللحظة ، والنساء لغز معقد
لا يهتدى إلى حله ، وتيه مضلل تدور فيه ولا تخرج منه ،
ولكنه رجع إليها البصر فلمح نتوءاً لا يكاد يرى عند أعلى فخذها
ايمنى . فعاوده الشك وتملكته الحيرة : أتخفى صدوف شيئاً
تحت ثيابها ؟ ولم تخفيه إذا لم تقصد شراً ؟ وما هو ؟ ولعب
الشيطان بعقله . وتزاحمت هواجسه ، فصمم على أن يتابع
حركاتها دون أن تشعر ليرى إلى أى مدى تنهى . وجاء المساء ،
وانصرف أهل القصر إلى شىء من اللهو والطرب كعادتهم ،
وصلى الوليد العشاء الآخرة بعد أن مر هزيع من الليل ، وتحين
أبورقية غفلة العيون فدلف إلى حجرة نوم الوليد واختفى تحت
سريره . ثم ذهب الوليد لينام ، وأوى من بالقصر إلى مضاجعهم .

ولما سكنت الأصوات ، ولف القصر ضرب من سكون الموت
 بعد أن كان يضطرب بضجيج الحياة ، وأوشك الليل أن يزعم
 الرحيل ، قامت صدوف من مرقدتها خائفة مرتعشة ، ولكنها
 استعانت ببقية من مذخور عزيمتها فأسرعت الخطا في حذر
 وترقب ، حتى بلغت الحجرة فدخلتها ، فسمعت تنفس
 الوليد هادئاً فأدركتها رجفة ، ولكنها لم تأبه لها ، وتقدمت والخنجر
 في يمينها ، وسمع أبورقية خطواتها فتزحزح ليخرج من تحت
 السرير ، فرأى صدوف ويدها تمتد بالخنجر إلى صدر الوليد ،
 فوثب من مكانه وقبض على يدها بقوة ليست في طوق البشر ،
 وذعرت الفتاة للمفاجأة فصرخت وقذفت بالخنجر ، ودهمتها
 موجة جارفة من البكاء والنحيب واستيقظ الوليد فدهس لما رأى
 وصاح :

— ما الخبر يا أبا رقية ؟

— شيء تافه ، فتاة تريد أن تنافسني في الجنون .

— قل لي ما الخبر قبل أن أكون مجنوناً ثالثاً .

— سلها يا سيدى . وكان من بالقصر قد تيقظ للجلبة

والصباح ، فهرع الجوارى والخدم إلى حجرة الوليد ، وجاءت

أمه ترتعد من الخوف ، حتى إذا رأتها رمت بنفسها بين ذراعيه

وهي تجهش بالبكاء . وقبض الوليد على ذراع الجارية وقال :

— قولى ماذا كنت تقصدين بهذا الخنجر ؟ فأجابت بين

الشهيق والعيويل :

— كنت أقصد أن أقتلك .

— ولم تقتلينى يا فتاة ؟

— ذلك سر أطويه لنفسى .

— هل أغراك أحد بقتلى ؟

— لم يغرنى أحد . فازداد غيظ الوليد ولكنه كبح غضبه وأمر

سبرة أن يجلس الفتاة وألا يمسه بسوء ، ثم التفت إلى أمه وهو

يقول مشيراً إلى أبى رقية :

— لقد أنقذنى هذا الجنون .

— إنه ليس بجنون يا بنى . إنه إذا أراد كان أعقل العقلاء .

حياك الله أبا رقية ! لقد نجيت ولدى .

— لعل من أكبر علامات جنونى أنى أهتم دائماً بهذا الوليد

الذى لا يساوى جناح بعوضة . فضحك الوليد وقال : الآن عاد

إليك الجنون . قل لى بالله : كيف وصلت إلى حجرتى ؟

— لقد ارتبت فى أمر الفتاة منذ الصباح ، وحوال فى نفسى

أنها تريد بك شراً لا أدرى لماذا ، فاختبأت تحت سريرك قبل

أن تنام ، وقد صدق ظنى ، وتحققت وساوسى . فقالت أم

الوليد : هذه مؤامرة من أعدائك حركت ساعد الفتاة بالخنجر ،

فاحذر يا بني فإنك تمشي فوق أرض ملئت بالفخاخ !
وانتهت الحادثة ، ومرت أيام وأيام ، وعرف ابن عنبسة من
اختفاء صدوف أن المؤامرة لم تفاجح .

وفي أحد الأيام خرج الوليد للصيد مع فريق من ندمائه ،
وبيما كان يعدو بفروسه « السندی » خلف غزال ظهر فارس من
عبيد بني أمية كان مختفياً خلف أكمة . فلمحه الوليد وهو
يصوب إليه سهماً فراغ منه ، فرماه بثان وثالث فأخطأه ،
وعجل الوليد فدار ووثب عليه بالسيف فأطاح رأسه وقال :

ألم تر أني بيما أنا آمن يخب بي السندی قفراً فيافيا
تطلعت من غورنا بصرت فارساً فأوجست منه خيفة أن يرانيا
ولا بدا لي أنما هو فارس وقفت له حتى أتى فرمانيا
رمانى ثلاثاً ثم إني طعنته فرويت منه صعدي وسنانيا

وقد علم الوليد بعد هذه المخاتلات المتكررة أن حياته أصبحت
في خطر داهم ، وأنه إذا نجا مرة وأخرى فلن ينجو في كل
مرة ، وتحدث مع أمه وندمائه في الأمر . فعمدوا العزم على أن
يفر بنفسه في البوادي . وأن يتقل بين المنازل والمناهل فلا يعلم
مستقره إلا أخلص خلدصائه . فهجر دمشق مع بعض جواريه
وأصحابه ، وخلف كاتبه عياض بن مسلم بالرصافة ليكون له
جاسوساً على هشام ولينبئه بأخباره .

ونزل على ماء يسمى « الأغدف » بعان بين أرض بلقين وفزارة ، ونسى الناس بدمشق الوليد ، وأطرقت أفاعى أعدائه إلى حين .

ومرت أيام وشهور على الوليد وهو يعانى الهم والضيق ، ويتنقل بين أحياء العرب كالطريد المنبوذ ، فى خشونة لم يتعودها ، وحفوة ليس له بها عهد .

وفى ليلة الأربعاء لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة . أحس هشام ضيقاً فى صدره واختناقاً ، فأخذ يئن أنيناً . ويدلى رأسه من النوافذ ليلتقط بعض النسيم ، ويهمس فى ضعف ويأس : هذه الذبحة ! هذه الذبحة ! لقد عاودتنى . ليس لى منها نجاة هذه المرة . مروا فيروز يحضر دواء الذبحة فإنى ما أرانى إلا مائتاً .

وأسرع فيروز فأحضر الزجاجة ولم يكن بها إلا ماء ملون ، فجرع هشام منها مرات فلم تفده شيئاً ، واشتد به الداء فألقى رأسه على الوسادة ، وأخذ يردد أنفاساً قصاراً .

وعلم عياض بن مسلم بمرضه وإشرافه على الموت ، فأسرع وختم على خزائن الأموال ، وأمر خزّانها أن يحتفظوا بما فى أيديهم ، وألا يخرجوا من خزائهم شيئاً ، وإلا كان جزاؤهم الموت .

وأفاق هشام من غشيته فطلب مروحة من بيت المال يجتذب بها

بعض الهواء إلى صدره ، فقبل له : إن الخزائن مقفلة موصدة ،
 فزفر زفرة قصيرة ثم قال بصوت يزاحمه الموت : « أرانا كنا خزاناً
 للوليد » ثم مات . وحينما هم أهله بغسله طلبوا قممماً ليسخن
 فيه ماء الغُسل . فقبل لهم : إن الخزائن مقفلة موصدة ، فاستعاروا
 قممماً من الجيران . ثم طلبوا له كفنأ فقبل لهم : إن الخزائن
 مقفلة موصدة ، فكفنه أحد عبيده من حرّ ماله .
 وهكذا يموت من ملك الدنيا ، ودانت له الأرض ، فلا يجد
 إناء لماء غُسله ، ولا يجد كفنأ فيكفنه العبيد . فسبحان من له
 الملك الدائم والعزة التي لا تبيد !!

ضحك وبكاء

أقام الوليد طويلاً بالصحراء حتى جفاها وجفته ، وأسأمتها
 بالشكاية وأسأمته ، وبينما كان جالساً ذات يوم إلى ندمائه وهم
 يتحدثون في دمشق وإيالي دمشق وما فيها من إشراق ومتاع ،
 إذ طاف به خيال سلمى فاستبد به شوقه . واشتد إليها حنينه ،
 وصاح : لقد انقطعت الرسل بيني وبينها . وأصبحت لا أطيق
 لهذا البين احتمالاً . ولا عليه صبراً . ليت شعري أين الآن
 وجهها ؟ وماذا تفعل الآن بعدى ؟ ألا تزال راعية لعهدى حافظة

لودي ؟ أخشى أن يكون ابن عنبسة قد وجد إليها الطريق
ذلولاً ، وأخشى أن يكون أبوها قد تغلب على عنادها ودفعها
إلى قبول هذا العتل الزنيم زوجاً . ثم تأوه وزفر وطلب إلى عمر
الوادي أن يغني :

طاف من سلمى خيال بعد ما نمت فهاجا
قلت عد نحوى أسائلك عن الحب فعاجا
بفلاة ليس ترعى أنبتت شيخاً وحاجا (١)
فغنى الأبيات بصوت حزين بكى له الوليد وبكى له من
معه ، ثم عاوده الفرع فجأة وطلب إلى أبي كامل أن يغني :
أصبح اليوم وليد هائماً بالفلوات
ابعثوا خيلاً نخيل ورماة لرماة !
فلما سكت أطرق الوائد طويلاً ثم اتجه إلى عبد الصمد
ابن عبد الأعلى وقال : أما لهذا النيل من أخريا ابن عبد الأعلى ؟
أما آن لهذه الغمرات أن تنجلي ؟ لقد طالت مدة هشام حتى
مللت انتظار يومه ، وكأنه يريد أن أسبغه إلى الموت .
فقال عبد الصمد : رفقاً بنفسك يا مولاي فإني أرى في ظلمات
الغيب نوراً يأنق ، وأسمع في صدري همساً يبشر بالفرج القريب :
ألم تر للنجم إذ شيعا يبادر في برجه المرجعا ؟

(١) الحاج : الشوك

فقلت وأعجبنى شأنه وقد لاح إذ لاح لي مطمعا
 لعل الوليد دنا ملكه فأوسى إليه قد استجمعا
 وكنا نؤمل في ملكه كنا ميل ذى الجذب أن يمرعا
 عقدنا له محكمات الأمور ر طوعاً . فكان لها موضعا
 فاهتر الوليد للشعر وقال : حياك الله يا ابن عبد الأعلى ! ألا
 تزال تؤمل في ملكي كنا ميل ذى الجذب أن يمرع ؟ إذا فلتؤمل
 طويلاً . ولتصبر طويلاً . فإن بينك وبينه سداً من صخر
 وجنادل يسميه الناس هشاماً . ثم وجه الحديث إلى المنذر بن
 أبي عمرو فقال : أتعرف يا ابن أبي عمرو أن ليلة لم تأت على منذ
 عقلت عقلي أطول من ليلة الأمس ؟ لقد عرضت لي فيها هموم ،
 وحدنتني فيها نفسي بأهـور . وأخذت أفكر في هذا الرجل الذي
 شردني وتجرد لإيذاتي . فاركب بنا نتنفس فقد كدت أضيق
 بكل ما حوى . فركبا حتى إذا سارا ميلين وقف الوليد على
 كتيب ، وأعاد الكلام في هشام ، وفي الشكوى من هشام ،
 وبينما هو يعدد أفاعيله . إذا رجلا ن علي البريد مقبلان ، أحدهما
 مؤ لأبي محمد السفيناني . ولآخر يدعى جردبة ، فلما قربا أتيا
 الوليد يعدوان حتى دنوا منه . فسلما عاياه بالخلافة ، فدهش
 الوليد وتملكه ذنون كاد يسقطه على الأرض ، فجعل جردبة
 يكرر السلام عاياه بالخلافة . وهو مشدوه يفتح فـه ولا يستطيع

الكلام ، ثم جاهد حتى ملك نفسه وقال :

– ويحك أمات هشام ؟

– نعم يا أمير المؤمنين . فصاح الوليد : صدق الله العظيم « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » . اكتب يا ابن أبي عمرو إلى العباس بن الوليد أن يأتي الرصافة ويحصى ما فيها من أموال هشام ، وأن يسجن أولاده وعماله وخدمه ، ثم قال :

طاب يومى ولد شرب السلافة إذ أتانى نعى من بالرصافة
وأنا البريد ينعى هشاما وأنا بنخاتم للخلافة
وأمر من معه بالرحيل إلى دمشق ، ودخل المدينة فى موكب
حافل وهو فوق فرسه « الرائد » ، وقد لبس خلع الخلافة ،
وقبض على عصاها ، ووضع فوق رأسه عمامة بها ياقوتة حمراء
بقدر الكف قبيلتها أشعة الشمس . ثم ارتدت عنها فأرسلت بريقاً
وألواناً تتخطف العيون . وحف به ندماءه وكتابه وعماله وكبار
أهل الرأى من بنى أمية ، واصطف الناس وتزاحوا على الجانبيين .
ورددوا صيحات الفرخ والاستبشار بالخليفة الشاب ، ونثر أمامه
النثار الدنانير والدراهم ، فانكب عليها الناس فى هرج وشره كما
تنقض سباع الطير على فرائسها ، ومشى المغنون وهم ينقرون
الدفوف ويعزفون بالطنابير ، وكان أشعب يرقص أمامهم رقصات

عجبية يتلوى فيها جسمه كما يريد . كأنه خلا من العظام ،
ويرسل النكات سافرة ومحجبة لا يبالي من يقذف بها .
وبلغ الموكب قصر الخلافة . وجلس الوليد على عرش آبائه
بعد أن طال إليه اشتياقه وكاد يدركه اليأس منه ، وتقدم
صناديد الأمويين وعظماؤهم يبائعونه ويسلمون عليه بالخلافة ،
وبايع الناس جميعاً . وطارت إليه الرسل من أقصى الأرض
بالبیعة والتهنئات ، وحال بخاطره وهو في هذه النشوة الساحرة ،
وذلك العز الشامخ ، بيت من الشعر قالته لسليمان بن عبد الملك
إحدى حظاياه :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى

غير أن لا بقاء للإنسان !

فغام وجهه وزاغ بصره . فhez رأسه هزاً عنيفاً ، كأنه يريد
أن يطرد عنه طائر التطير ، ثم أمر ابن عبد الأعلى أن يدعو
إليه سعيد بن خالد . وقدم عليه في هذه الأثناء وفد الشعراء
وكان في مقدمتهم يزيد بن ضبة . وهو شيخ جاوز السبعين .
دخل يتوكأ على عصاه فهناً الوليد بالخلافة . وانكب على
رجليه يقبلهما . وكان ابن ضبة في أول عهده منقطعاً إلى
الوليد . فلما أفضت الخلافة إلى هشام فر من وجهه إلى الطائف ،
وحين رآه الوليد فرح به وهش للقائه وأدناه ، وقال لحاشيته :

هذا طريد هشام لصحبته إياي وانقطاعه إلى ! هات يا ابن
ضبة ما عندك . فأنشده قصيدة منها :

سنا بالذهب الأحمر وزناً بالقناطير

كريم العود والعنصر غمر غير متور

فطرب الوليد للشعر ، وأمر بأن تعد أبيات القصيدة وأن يعطى

بكل بيت ألف درهم ، وكانت خمسين بيتاً . ثم أمر كاتبه عياضاً

أن يجرى عطاء دائماً على عجزة أهل الشام من الشيوخ والمرضى

والعميان والفقراء المعدمين ، وأن ينحصر كل واحد منهم بخادم ،

وأمره بأن يزيد في عطاء كل صاحب عطاء عشرة دنانير ،

وأن يصل بأعطية أهل الشام إلى ضعف ما كانوا يأخذون .

ثم طلب منه أن يكتب إلى نصر بن سيار عامله على خراسان ،

أن يسير إليه مع وحوه أدل خراسان . وأن يحضر معه برابط

وطناير ودفوناً وأباريق من ذهب ونفضة ، وأن يجمع كل صراحة

يقدر عليها ، وكل باز . وكل برذون فاره . ثم أطرق قليلاً

وقال :

وعليك أن تحصر علماء الحديث والقرآن بالشام والمدينة ،

ثم تجرى على كل واحد منهم مائتي دينار في العام .

والتفت إلى ابن سهيل وقال : وأنت يا ابن سهيل مركب

شرطي أن يقبض على يزيد بن عنبسة وسليمان بن عبد الملك

وعمر بن الوليد والزهرى وأبناء القعقاع ، وأن يزوج بهم فى سجن
الظلام ، فقد كنت أحن إلى هذا اليوم الذى أشقى فيه نفسى منهم .
وما كاد ينتهى من أوامره حتى وصل سعيد بن خالد فاستأذن
فأذن له ، فدخل وهو يرتجف من الخوف ، فقبل يد الوليد
وهناه بالخلافة . فقال الوليد :

- أقبل على يا ابن خالد ، فإن بيننا حساباً عسيراً .
- لقد سعدت الدنيا بك يا أمير المؤمنين وسعد الناس .
وهذا يوم صفاء يجب ألا يكدر بذكر الماضى .
- صدقت يا ابن خالد ، ولكنك كنت على إلباً مع هشام ،
ولو شئت أن أنتقم لفعلت . ولكن شفيحاً لا يرد يأتى دونك
ودونى ، فبرد عنك يدى ، ويغمد سيفى . كيف سلمى ؟
- هى بخير تقبل يدى أمير المؤمنين وترجو رضاه .
- ترجو رضاي ؟ ولقد لبثت شهوراً بائع ثياب لألتمس منها
كلمة رضا ! والآن وقد أصبحت أمير المؤمنين أتقبل
أن تزوجنيها ؟

- هى خادمة لأهـير المؤمنين . فوثب الوليد من مجلسه وثبة
عصبية ، وصاح فى أصحابه : أعدوا كل شىء للعروس .
وكان عرساً لم تر له دمشق مثيلاً ، تألقت فيه الأنوار ، ومدت
الموائد ، ونثرت الدنانير واللآلىء ، وتواترت فيه الهدايا من كبار

الدولة وعمال الأمصار ، ولم يبق عود ولا طنبور ولا دف في
المدينة إلا أطلق العنان للألحان ، ولم تبق راقصة ولا شادية إلا
عرضت من فنونها ما يثير الوجدان ويعجز البيان ، ولعبت نشوة
الفرح بالرعوس فسالت الأعطاف وجمد اللسان ، وعرض أشعب
الأعيه وفنونه بين ابتسامات الشيوخ وضحكات الحسان ،
واخترق الوليد الجمع الحاشد وهو يصبح في غير مبالاة :

أولا تخرج العروس فقد طال حبسها ؟!

قد دنا الصبح أو بدا وهي لم يُقضى لبسها !

وبعد قليل تحققت أمنيته وابتسم له القدر العابس ، وزفت
إليه حبيبة قلبه وريحانة حياته . بعد أن ضرب الدهر بينه
وبينها ، وكاد اليأس يقضى عليه وعليها .

وكانت سلمى في برد شبابها زينة شبابها ، وزهرة أترابها ،
جسم رخص ريان ناصع البياض كأنما صيغ من صافي الدر
أوسبيك اللجين ، وقامة مياسة يزيدها العجب حسناً ولدانة ،
وصدر ممتلىء رجراج كأنه الزئبق يفر من البنان ، ووجه تأنقت
يد القسدره في تكوينه وتلوينه فجاء صورة للجمال البارع
الذى حاول وصفه كل شاعر فنّد عن أوزانه ، وخطر لكل رسام
فأبى على الواحه وألوانه ، جين يتألق كأنه الصباح الباسم ،
وعينان فيهما سحر وفيهما خمر وفيهما كل ما يثير الفتنة ويعبث

بالعقول . وأنف عربي أموي فيه الشمم وفيه العزة وفيه الجمال ،
وفم ياقوتي يبسم عن درر لم تظفر بمثلها صدقات البحار .
جلست سلمى إلى جانب الوليد فتشاكيا البعد . وتبادلا
الوجد . وشربا من رحيق الحياة أكوابه صافية مترعة ، ومرت
بهما ساعات هنيئات أطلق الدهر الغادر لها فيها العنان ،
ومد الحب عليهما الظلال ، فمن عناق إلى عناق ، ومن قبلات
إلى أشواق ، ومن ضحك إلى بكاء هو الضحك ، ومن مزاح
إلى جد هو المزاح ، حب وملك ونشوة وشباب وجمال فماذا
بقي من صنوف النعيم ؟ وماذا تخلف من نصارة الحياة ؟ حقاً
إن السعادة لو طمعت في أكثر من هذا لكانت بطرة ملولا !
ومضى سبعة أيام والعاشقان يتساقيان كؤوس الحب ،
ويتراشفان رضاب الغرام ، وترك الوليد شؤون الدولة تسير كما تريد
أن تسير ، أو تقف كما تريد أن تقف ، وانفرد بحبيته في ناحية
من قصره كما انفرد طائران في وكن ، وجعل بينه وبين صخب
الحياة وضجيجها وآلامها ودسائسها حجاً مستوراً . لم يخطر
بباله تألب العلويين ، ولا مؤامرات العباسيين . ولا تدمر
الأمويين ، ولا تلك الثورات التي أخذت تشتعل في أطراف
الدولة . الدنيا عنده سلمى ، والحياة سلمى ، وكل جميل في هذا
الوجود ليس إلا سلمى . وطالما كان يقول ، وطالما كان يردد !

أنا في يمنى يديها وهي في يسرى يديه
 إن هذا لقضاء ليس عدلاً يا أخيّه
 ليت من لام محباً في الهوى لاقى منيه
 فاستراح الناس منه مية غير سوينه !

بقيا على تلك الحال سبعة أيام ، وجاء اليوم الثامن فكان شديد الحر ، لواح الهجير ، متقد أديم الأرض ، مات فيه النسيم العليل ، وبعثت نيران الجحيم ، وصبت الشمس فيه شواظاً على جبل قاسيون فأبى أن يحمله وأشفق منه ، فرمى به إلى المدينة شرراً وحمماً . واغبر الجو فاختنقت الأنفاس ، وضافت الصدور ، ولم تطق سلمى ذلك الحر اللافح ، فأمرت جواربها أن يضعن لها ثلجاً في الماء ، فلما ذاب فيه قامت لتبرد ، فتسلبت من ثيابها ، وأخذت تصب الماء على جسمها ، وحين شعرت بلذة الماء وبرده والت الصب ثم والله ، كأنها كانت تظيء لهيباً . ثم لبست غلالة رقيقة من الحرير ، وخرجت إلى أحد مشارف القصر فوقفت به طويلاً ، وما كاد يولي النهار حتى شعرت ببرد شديد يسرى في أوصالها ، ثم أخذتها غشية فسقطت على الأرض لا تحس ولا تبين ، فأسرع إليها الوليد فحملها إلى سريرها ، وأقبلت أمه مذعورة واجفة ، ووثق الجوارى بذلكن جسمها ، وينضحن وجهها بماء الورد لتفيق .

واضطرب الوليد وأخذه البكاء واستولى عليه الهلع ، وجعل يصيح :
 أين الطيب ؟ أين الطيب ؟ اذهبوا إلى فرات بن شحناثا
 اليهودى . أحضروه على جناح الريح . على جناح البرق . على
 جناح الشيطان ! حبيبتى ! حبيبتى تموت وأنتم هنا أمامى
 يا أولاد الإمام !

ولم يمض إلا قليل حتى جاء الطيب وكانت البرودة التى
 فى جسم سلمى انقلبت حرارة متأججة ، وأخذ تنفسها يتلاحق ،
 وصدورها يرتفع وينخفض كأنه كبر حداد . ثم اعترتها نوبة
 هُذاء وخلاط ، فجعلت تثب من سريرها وتصبح : دعونى
 أذهب إلى زوجى ، أنا أعرف أنه بعين . لقد حال هشام
 بينى وبينه ، حبيبتى ! أنت لا تصلح بائع ثياب . إن وجهك
 يشى بك ، إن به نبلا موروثاً ، إنه وجه ملك . أثواب وأوان
 للعذارى الحسان ! دعنى يا أبى من ابن عنيسة ، عم مساء يا أبى ،
 هاتوا حلى العروس ! مشطوا العروس ! ما هذه البئر؟ إنها بعيدة
 الغور مظلمة ، لقد زلقت رحلى . أدركونى ! أنقذونى ! ثم
 سقطت على السرير مجهودة لادثة . تطلب نفس النسيم فلا
 تكاد تجده ، وغاصت فى غشية لا قرار لها ، وارتفع بكاء
 الوليد وبكاء من حوله من الجوارى والخدم . وأخذ يلطم وجهه
 كما تفعل النساء إذا حز بهن الحزن ولم يجدن له متنفساً ، ومس

الطبيب المريضة وسأل عما يكون سبباً في المرض ، ثم اتجه إلى الخليفة مكفهر الوجه حزيناً وقال : إن هذا المرض في الرثمين يا أمير المؤمنين ، وقد سببه صب الماء البارد ، ثم التعرض للجو في غلالة رقيقة ، وهو مرض قوى الحملة ، شديد الوطأة ، ولكن الله يشئ ما هو أشد منه وأعضل . ودواؤه الدفء والأشربة الساخنة ، ويجب ألا تخاطب المريضة وهي تهذى وإلا اختلط عقلها ، وإذا احتملت مولاتي هذا المرض خمسة عشر يوماً نجت وزالت أسباب الخوف ، وإني يا أمير المؤمنين مستبشر خيراً ، راج في وجه الله الكريم ، وسأعد لمولاتي دواء ، وسأتردد في كل يوم مرات ، مسح الله السوء عن مولاتي ، ولا أحزن قلب أمير المؤمنين !

وانصرف الطبيب . ومريوم وثان وثالث والمرض يستشرى . والآمال تتضاءل ، حتى إذا كان اليوم السابع هدأت المريضة وسكن صدرها من الحفقان . فاستبشر الوليد وأرسل صبيحة فرح دوت في جوانب الحجر . وكادت تهز الكلة التي ضربت فوق سريرها . ثم أخذ يداعبها ويدللها ويقول : لقد شفيت يا حبيبي وزال عنك الضر ، سأذهب بك عند ما يتم شفاؤك إلى لبنان . إن هواءه يبرئ السقيم ، وماءه من تسنيم ، وتفاحه كشمك . سكتى النضجات . سكرى اللثامات . أتحنين تفاح

لبنان يا سلمى ؟ حدثيني ، أتفضلينه على ممش دمشق ؟
قولي يا حبيبي أيهما تفضلين ؟ مالك ساكنة ؟ أواجدة أنت
على ؟ لا لا ، إن الوليد لا يغضب ريحانة حياته ، بالله أجيبني
يا سلمى !

ولكنها لم ترد عليه ، ولم تجاذبه الحديث . فرغ الكلة ونظر ،
فإذا جثة هامدة ! وإذا الجمال الباهر الذي كان حمالا في جسم
وروح أصبح جمالا في تمثال . فصرخ وشق ثيابه . وأخذ يدور
في الحجرة كالمجنون ، ويضرب الجدران برأسه ويصرخ : ماتت
سلمى ! ماتت سلمى ! ذهبت حياتي ! طويت آمالي ! غابت
شمسي ! جفت زهرتي ! صوحت روضتي ! أدركوني يا عبيد
القصر ، خذوني وادفنونني معها . لا شأن لي بالحياة بعدها .
إن الحياة ليست نفساً يتردد ولكنها أمل ورجاء وحب . وكان
أبورقية يجلس في ناحية من الحجرة مشدوه العينين ساهماً ،
يرتل القرآن ترتيلاً . وقدم رجال الدولة وعم البكاء وارتفع العويل
وطوى بساط للسروور وفرش بساط للأحزان .

وفي اليوم التالي دفنت سلمى بعد إيباء من الوليد وممانعة ،
وبعد أن شيعها بأبيات تقطع نياط القلوب ، وتستنزف
ماء الشئون :

أما تعلمنا سلمى أقامت مضمنة من الصحراء لحدا ؟

لعمر ك يا وليد لقد أجنوا بها حسباً ومكرمة ومجدا
 ووجها كان يقصر عن مداه شعاع الشمس ، أهلاً أن يفدى
 فلم أر مسيتاً أبكى لعين وأكثر جازعاً ، وأجلّ فقدا
 وعكف بعد ذلك الوليد على أحزانه ، ولم يجد تسليّة لحدومه
 إلا أن يصب عذابه على من ناصبوه العداة أيام هشام ، فأحضر
 سليمان بن هشام من السجن وأمر بأن يضرب أمامه مائة سوط
 وأن يخلق رأسه ولحيته ثم ينق إلى عمان ، وطلب يزيد بن عنبسة
 والزهرى فقبل له إنهما فرّا إلى حيث لا يعلم مكانهما ، فأرسل
 خلفهما الجنود ليقبضوا عليهما ولو كانا في أقصى الأرض ، ثم
 أمر بأن يدفع بنو القعقاع إلى عامل قنّسرين ليذيقهم مرّ العذاب
 إلى أن يموتوا ، ودعا عياضاً كاتبه وطلب منه أن يكتب إلى
 يوسف بن عمر والى العراق بقتل خالد بن عبدالله القسرى ،
 وهكذا كان يقضى الوليد نهاره فى تعذيب وانتقام ، ولبه فى
 تطريب وأنغام ا

واجتمع أهل الدعوة بخراسان عند ما وصلت إليهم أنباء
 الوليد وأحاديث لوه وظلمه ، ورأوا أن دولة الأمويين تخطو
 حثيثاً إلى الزوال . وأن من الحكمة أن ينتظروا بإظهار دعوتهم
 قليلاً حتى تجف الثرة وتسقط وحدها ، لأن عبت بنى أمية
 وحده سيزيد فى كراهية الناس لهم وانصرافهم عنهم ، وبذلك

يسهل ثل عرشهم ومحو سلطانهم ، واستبشر الدعاة بالوليد خيراً
 فزادت قوتهم وتجددت آمالهم ، وظهرت منهم بوادر آها نصر
 ابن سيار عامل خراسان فتوحس الشر ، وأحس بسوء المصير ،
 وكتب إلى الوليد :

أرى نخل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام !
 فإن النار بالعودين تذكي وإن الحرب أوطأ كلام !
 فقلت من التعجب: ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام ؟ !
 فلما قرأ الوليد كتاب نصر كتب في أسفله :

بل نيام يا ابن البلهاء ! لقد أقطعك أمير المؤمنين خراسان
 هبة فاعمل بها ما شئت ، فإنه مشغول عنك وعن خراسانك !

قتل ودمار

ومرت شهور والوليد يشقى نفسه في كل يوم بانتقام جديد حتى
 خافته خاصة الناس وسئته عامتهم ، ولقد فرح الناس لتوليته
 أول الأمر لما أغدق من العطايا والنعم ، وما بذل من الماواهب واصطناع
 المعروف ، بعد أن عانوا أيام هشام عهداً شحيحاً محاسب فيه
 الخليفة على الدائق ، ولا يثيب إلا على عمل . ولكن الوليد لم
 يستطع أن يمد يده بالعطاء في كل حين ، ولم يكن له من الخلال

ما يحمل الناس على حبه وإجلاله ، فتحولت عنه قلوبهم ونالت منه ألسنتهم . ولكل دولة في أول عهودها بهجة وإشراق ، يستقبلها الناس فرحين مستبشرين ، وهي تستقبل الناس بالوعود وبذل الرغائب ، فإذا ذهبت جِدَّتْها ولم تواصل إحسانها انصرفوا عنها ساخطين شاكين وهم يتحسرون على العهد القديم ، ويتطلعون إلى فجر يوم جديد .

واجتوى الوليد دمشق واجتوته ، وكره لقاء الناس وضجروا به . فرحل إلى « الأغدف » بعان وسار في ركابه كثير من خدمه وندمائه . وكان الوليد خلقاً عجيباً فقد كانت له نفس واحدة استطاعت أن تنقسم أنفساً ، فكانت له نفس باكية حزينة . ونفس مرحة ضحوك ، ونفس تقية خيرة ، ونفس عارمة صاخبة ، وكانت كل نفس من هذه الأنفس تظهر فجأة على غير إرادة من صاحبها ، وتطالع الناس متناوبة متعاقبة كما تدور كرة حول محور ، فكثيراً ما اتصل منه الضحك بالبكاء . والخير بالشر ، والقوة بالضعف ، وكان الناس لذلك منه دائماً في وجل وخوف ، لا يدرون ماذا تكون اللحظة التالية للحظة الحاضرة .

ذهب إلى الأغدف وأعاد فيه مجالس أنسه ومجالى صبوته ، وكأنه لم يعشق مرة سلمى . ولم ينكب بموت سلمى ، ولكن

خيالها كان يطوف بنفسه في لحظات متقطعة فيبكي بين رنين
المزاهر ودقات الصنوج . وتنفست دمشق الصعداء لفراقه .
ومد فيها الساخطين رءوسهم إلى الفتنة ، وعاد إليها كثير من الفارين
كابن عنبسة وبعض بني القعقاع وزعماء اليمنية . وفي ذات
صباح التقى جمع منهم بدار شبيب بن أبي مالك فتذاكروا في
شأن الوليد ، وأنه إذا امتد عهده لم يبق منهم أحداً ، ولم يترك
لمجد الخلافة أثراً . واستقر رأيهم على مبايعة يزيد بن الوليد
لأنه كان يظهر التقوى والورع ويتشبه بعمر بن عبد العزيز .
فذهبوا إليه وكان بالرصافة فحدثوه بأمرهم ، وألقوا إليه بسرهم .
فأخذته الدهشة وتذكر سطوة الوليد وبطشه فطلب منهم أن
يمهلوه حتى يستشير عمرو بن يزيد ، ثم تركهم وذهب إلى
عمرو في داره وأطلعه على ما اعتزم عليه القوم فوقف عمرو وقد
كان جالساً وقال :

هذا يا ابن العم أمر جسيم لن يفصل فيه إلا أخوك العباس
فإنه صاحب رأى ومعرفة ، أما أنا فرجل كثير الشكوك كثير
التقلب ، وليس لتقلب رأى .

وانطلق يزيد إلى العباس يستشيريه ويستهديه ، فما كاد يكشف
له عن طرف مما جاء بشأنه حتى وكزه العباس في صدره ،
وصاح في وجهه غاضباً : حقاً إنك لأشأم سخلة في بني مروان .

ووالله لولا ما أخافه عليك من حدة غضب الوليد لشددت
وثاقك وحملتك إليه . إن دولة بني أمية تهتز للسقوط فبالله
عليك لا تضرب فيها بمحور جديد ! وإن بها من نيران الفتن
ما تعدّ جهنم إزاءه جذوة خامدة ، فدعها أيها الغرّ ولا تزدها
نكالا ! دعها بالله وانصرف إلى شأنك . أتدرى معنى خلع
خليفة من بني مروان ؟ إن معناه أيها الأبله ضياع الدولة كلها ،
اذهب يا عدوّ عشيرته ولا تثر جرحاً لا يريد أن يندمل ، وإذا
حدّثت نفسك بشيء مما في نفسك فاعلم أنه هو الشيطان الخناس
الذي يوسوس في صدور الناس ، وأن غراب الفتنة هو الذي
يدفع الأشقياء إلى أن يخرّبوا بيوتهم بأيديهم :

إني أعيدكم بالله من فستن مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ماتت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارْتدعوا
وخرج يزيد من لدن العباس حزينا متردداً ، ولكن
الرغبة في الملك أغرته بنبد وصايا أخيه فنفض عنه ما كان قد
أصابه من يأس ، وطرح ما كان مسّه من خوف ، والتقى
بجماعات الساخطين وكان بينهم يزيد بن عنبسة فبايعوه سرّاً ،
ولما اجتمع له أمره قصد إلى دمشق متنكراً في سبعة من أنصاره ،
فتزل على الميزة وهي من أرباض دمشق ، وقصد قُدماً إلى دار
معاوية بن مصاد زعيم قومه فبايعه وبايعه كثير من أهله

ورجاله ، ثم رحل إلى دمشق وعزم على إظهار الدعوة ، فأرسل إلى أصحابه فكنوا عند باب الفرديس ، ودخلوا المسجد الجامع لضلاة العشاء ، فلما أتموا المكتوبة قبضوا على من بالمسجد من الحراس وكبلوهم ، ووضى يزيد بن عنبسة إلى يزيد بن الوليد فأخبره الخبر ثم قال : قم يا أمير المؤمنين وأبشر بنصر الله وعونه ! فاتجه يزيد إلى السماء وهو يقول : اللهم إن كان هذا لك رضاً فأعني عليه وسددني له ، وإن كان غير ذلك فاصرفه عني ! وانطلق مع ابن عنبسة في دروب دمشق ، وكلما سارا خطوات انضم إليهما أعوان وأنصار . وما جاء اليوم الثاني حتى توافدت على يزيد الكتائب يقودها مشايخها ، وهي تتحرق للقتال وترجو ما وراءه من غنائم .

وطار أحد عبيد الوليد على جواد يسابق الريح إلى سيده ، فلما بلغ الأغدف رآه بين ندمائه وعمر الوادي ينشدهم :
أدر الكأس يمينا لا تدرها باليسار
اسق هذا ثم هذا صاحب العود النضار
من كبيت عتقوها منذ دهر في جرار
وما كاد يلتقى إليه الخبر حتى ثار وقذف بالحمم ، وأمر بضربه مائة سوط ثم بجبسه .

وكان بمجلس الوليد يزيد بن نخالد ، وعبدالله بن سعيد ،

والأبرش الكلبي . فقال ابن خالد :

– إني أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل حمص فإنها حصينة ،
وأن توجه منها الجنود إلى يزيد حتى يُظهرك الله عليه . وقال
ابن سعيد :

– لا ينبغي للخليفة أن يرتحل بجنوده ويدع نساءه في
أيدي أعدائه ، والله مؤيد أمير المؤمنين وناصره . فابتدره ابن
خالد قائلاً :

– وماذا يخاف أمير المؤمنين على نسائه ، وقائد جيش عدوه
هو ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ؟ فصاح
الوليد في غضب وسامة : لن أرحل ولن أترك أهلي ونسائي .
وأشار عليه الأبرش أن يتزل بحصن البخراء وأن يقاتل أعداءه
حوله ، فأخذ الوليد برأيه ، وانتقل إليه . أما دعاة يزيد فانطلقوا
ينادون في الناس : من سار للقتال مع يزيد فله ألفان ! فهرع
إليه كثير من مرتزقة المحاربين .

ثم علم عبد العزيز بن الحجاج قائد جيش يزيد أن العباس
ابن الوليد قادم لمناصرة الوليد بطائفة من أهله ورجاله ، فسقط
في يده . وأيقن أن شيئاً من ذلك لو تم لتفرق عنه رجاله لشدة
ثقتهم بالعباس ، وحبهم إياه واعتقادهم أن الفئة التي يظاهرها
هي الفئة الغالبة ، لذلك أسرع فبعث منصور بن جمهور على

رأس فرقة من الجند لتحول بين العباس والوصول إلى الوليد .
 وسار منصور وهدد العباس وساقه مع من معه إلى مخيم ابن
 الحجاج ، فلما وصل إليه أمره ابن الحجاج أن يبايع لأخيه
 يزيد فبايع مكرهاً مغلوباً ، ونصب ابن الحجاج راية العباس ،
 وأمر منادياً أن ينادى في الناس : هذه راية العباس وقد بايع
 لأمير المؤمنين يزيد . وما كاد أصحاب الوليد يسمعون هذا النداء
 حتى تفرقوا عنه وانضموا إلى جيوش أعدائه .

ولكن الوليد كان شجاعاً مقداماً بعروبته وطبعه الموروث ،
 فلم يأبه لانصراف أصحابه عنه ، واعتزم أن يلتقى القوم بنفسه .
 ففي أحد أيام جمادى الأولى من سنة ست وعشرين ومائة ركب
 فرسه « السندی » وقذف بنفسه في حومة الحرب فقاتل قتالاً
 شديداً ، ولكن القوم تزاخوا عليه حتى كادت تنوشه سيوفهم ،
 فدخل الحصن وأغلق الباب دونه ثم أخذ المصحف وجلس
 يرتل آيات القرآن الكريم ، وانتحى أبورقية ناحية من الحجرة
 وأخذ يفتح عينيه ويغمضهما كأنه كان يصلى بإيماء العينين .

ووثب يزيد بن عنبسة نحو الباب وصاح قائلاً : كلمني يا وليد ،
 فلقد كنت تبحث عني في كل مكان ، وما أنذا قد أتيت إليك
 طائماً ، ولكني أظنك لا تؤدّ اليوم لقائي . لقد حاربته في
 سلمى أيها الرجل فانتصر الموت علينا جميعاً واستأثر بها ، واليوم

تلقى جزاءك بما قدمت ! لا تخف يا أبا العباس فإنى لن ألقاك
ولكن سبى هو الذى سياقك . فقال الوليد : لم تقتاونى لا أبا
لكم ؟ ألم أزد فى أعطيات أصحاب العطاء ؟ ألم أرفع المؤمن عن
كثير من الناس ؟ ألم أعط الفقراء ؟ ألم أعطف على الزمنى ؟
فصاح ابن عنبسة : إنا نقتلك لننقذ الخلافة من يدك . فغضب
الوليد وقال : حسبك يا ابن عنبسة ، إن الخلافة أكرم على
الله من أن ينقذها مثلك . ثم عاد إلى التلاوة وهو يردد : يوم
كيوم عثمان ! فسخر منه ابن عنبسة وجبهه بمقذع السباب
وغليظ القول ، ثم وثب فوق الحائط وانطلق وراءه نفر
من أصحابه ، ولما قرب من الوليد قبض على يده وكان يريد
أن يأسره ويذهب به إلى القوم ليفصلوا فى أمره ، ولكن رجلا
عاجاه بنضربة من سيمه فخر صريعاً مضرجاً بدمائه ، وتقدم
ثان فاحتز رأسه ، وأسرع روح بن مقبل فحمل الرأس وطار
إلى يزيد فرحاً بما يحمل . فلما وصل إلى خيمته قذف أمامه
به وهو يقول : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد وأسر من كان
معه ، هذا نصر مبین مؤزر ! فسجد يزيد شكراً ، ثم التفت
إليه باكياً وقال : كنت أرضى منكم بدون هذا ، أما القتل فبلاء
عظيم !

ودخل ابن عنبسة فأخذ بيد يزيد وقال : قم يا أمير المؤمنين

وأبشر بنصر الله لك وإتمام نعمته عليك . فارتعد يزيد وقال :
ويلي إذا لم يغفر الله لي ! قل لي بالله يا ابن عنبسة ، ماذا قال لكم
الوايد قبل قتله ؟ فأجاب ابن عنبسة : لقد كان يقول : أما فيكم
ذو حسب فأكامه ؟ أليس منكم رجل رشيد يستمع لما أقول ؟
ونكنا أوسعناه تقريباً وتواثبنا عليه فروينا أديم الأرض بدمائه .
فصاح يزيد : كفاك يا ابن عنبسة كفاك ! لقد لعمرى
أكثر وأغرقت ، أما والله لا يرتق بعدها لكم فتق . ولا يلم
شعب . ولا تجتمع كامة ! إن الرعوس التي حصدها الحجاج
ابن يوسف بعد أن أينعت وحان قطافها ستأر اليوم لنفسها !
لقد حق القول على بني أمية وانهار بناؤها . وخربت - كما يقول
العاصم - سوتها بأيديها ! وإنما أنا والوايد رجلان انتصر منهما
المنهزوم . وقاتل منهما! امقتول !
بصاوتني والسيف بيني وبينه وأقتاه عمداً . وفي قتاه قتلى !

اقرا

١٩٤٨

١٩٤٣

صدر منها ٦٢ كتابا في مختلف ألوان
الفكر تداول كتابتها أعلام الكتاب في
مصر والشرق العربي وقد رضى عنها
جمهور القراء في جميع البلاد العربية .

ثمان النسخة

في مصر ٥٠ مليا في سوريا ولبنان ٦٠ غلس
في السودان ٥٠ مايا في العراق ٦٠ فلسا
في فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا

احرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة
كاملة فهي دخر ثقافى قليل النفقة كبير
الفائدة وقد تكون في كل منزل نواة لإنشاء
مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب .

